القسم الأول

الباب الأول

عصر ابن الكيزانى

الفصل الأول

١ – الجانب السياسى

سنتناول فى هذا الفصل الأحوال السياسية التى كانت سائدة فى مصر إبان الدولة الفاطمية وبخاصة فى القرن السادس الهجرى وذلك من الناحيتين الداخلية والخارجية فنقول :

كان الفاطميون قد استولوا على مصر واستخلصوها لأنفسهم من أيدى العباسيين وذلك فى أوائل النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . ومن يقرأ تاريخ الدولة الفاطمية يجد أنها كانت فى أول أمرها عزيزة الجانب قوية الشكيمة يخشى العباسيون والفرنجة جميعاً بطشها ، إذ كانت قد بسطت سلطانها على البلدان الواقعة بين المغرب العربى وإقليم المشرق . أعنى أنها كانت قد سيطرت سيطرة فعلية على ليبيا ومصر وجميع ربوع الشام ، كما أنها قد امتدت فى أخريات القرن الخامس الهجرى إلى بلاد اليمن حيث قامت هناك دولة عرفت باسم الصلوحيين ، وكانت هذه الدولة تتبع الخلفاء الفاطميين من الناحيتين السياسية والمذهبية ، غير أن قوة الفاطميين أخذت تضعف وسلطانها بدأ يضمحل ، وذلك فى أوائل القرن السادس الهجرى ، وكان أول مظهر من مظاهر ضعف الدولة الفاطمية كون الفرنجة استطاعوا أن يستولوا سنة ٥٠٣ هجرية على بيت المقدس ، وذلك بعد معركة انهزم فيها الفاطميون هزيمة نكراء ، ولم يجرؤوا بعد تلك الهزيمة أن يعاودوا الكرة على بيت المقدس ، ومن ثم بقيت تلك المدينة المقدسة تحت حكم الصليبيين ، حتى استردها من أيديهم السلطان الناصر

صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٣ هجرية . ومن مظاهر ضعف الدولة الفاطمية من الناحية السياسية والعسكرية فى هذا العصر تلك الحرب الداخلية التى دامت مدة سبعة أعوام وكان الزعيمان المجليان فيها هما الوزيرين المشهورين باسم شاور وضرغام، وقد كان لاختلاف الوزراء الفاطميين على خلفائهم — من ناحية — وتشاحن أفراد البيت الحاكم فيما بينهم من الفاطميين أنفسهم — من ناحية أخرى — أكبر عامل فى التعجيل بزوال حكم الفاطميين .

وإليك من صور الخلاف والتشاحن الذى ساد بين خلفاء الفاطميين ووزرائهم فى القرن السادس الهجرى ، على سبيل المثال ما ذكره ابن تغرى بردى وصاحب مرآة الزمان وغيرهما من ثقات المؤرخين عن الخليفة الظافر ، إذ قالوا إنه حين آلت إليه الخلافة لم يتمكن من تدبير شئون مملكته على الوجه المطلوب .

وإليك ما قاله عنه العلامة شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى سبط ابن الجوزى فى تاريخه مرآة الزمان[1] : « وكانت أيامه مضطربة لحداثة سنه واشتغاله باللهو ، وكان عباس الصنهاجى لما قتل ابن سلار ، وزر له واستولى عليه ، وكان له ولد اسمه نصر ، فأطمع نفسه فى الأمر ، وأراد قتل أبيه ، ودس إليه سمًّا ليقتله ، فعلم أبوه واحترز وأراد أن يقبض عليه فما قدر ، ومنعه مؤيد الدولة أسامة ابن منقذ — وقبح عليه ذلك وقال : إن فعلت هذا لم يبق لك أحد ويفر الناس منك ، فشرع أبوه يلاحظه — يعنى الوزير عباس يلاطف ابنه نصر — وقال له عوض ما تقتلنى اقتل الظافر ، وكان نصر ينادم الظافر ويعاشره . وكان الظافر يثق به وينزل فى الليل إلى داره متخفياً . فنزل ليلة إلى داره وكانت بالسيوفية داخل القاهرة ومعه خادم له ، فشربا ونام الظافر فقام نصر فقتله ورمى به فى بئر فلما أصبح عباس — يعنى الوزير أبا نصر — جاء إلى باب القصر يطلب الظافر ، فقال له خادم القصر ابنك يعرف أين هو — قتله — فقال عباس : ما لابنى فيه علم وأحضر أخوى الظافر وابن أخيه فقتلهم صبراً بين يديه ، وأحضر أعيان الدولة وقال : إن الظافر ركب البارحة فى مركب فانقلبت به فغرق . ثم أخرج عيسى ولد الظافر فتعرفوا على عباس وابنه ، وثار الجند والعبيد وأهل القاهرة ، وطالبوا بثأر الظافر من عباس وابنه نصر فأخذ

(١) النجوم الزاهرة : ص ٢٨٨ .

عباس وابنه نصر ما قدرا عليه من المال والجواهر وهربا إلى الشام، فبلغ الفرنج فخرجوا إليهما وقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ، أو قتل نصر فى السنة الآتية .

وذهب ابن القلانسى إلى خلاف هذا فقال: وكان الظافر قد ركن إليهم—يعنى أخويه وابن عمه — وأنس بهم فى وقت مسراته فاتفقوا عليه واغتالوه، وذلك فى يوم الخميس سلخ صفر وحضر العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة من الأمراء والمقدمين للسلام على الرسم فقيل لهم إن أمير المؤمنين ملتاث الجسم فطلبوا الدخول إليه فمنعوا فألحوا فى الدخول بسبب العيادة فلم يمكنوا فهجموا ودخلوا القصر وانكشف أمره فقتلوا الثلاثة وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنين ولقبوه بالفائز بنصر الله وبايعوه، وعباس الوزير إليه تدبير الأمور »[١] .

ومهما يكن من أمر فالأخبار متضاربة فى سبب قتل الخليفة الفاطمى ، ولم يهتد التاريخ إلى الباعث الذى قتل من أجله الظافر ، غير أنه من الواضح البيِّن أن حالة البلاد ساءت وتردت بعد قتله واضطربت الأمور واجتمع رجال القصر وسيداته وسيدات البلاط يفكرون فيما حل بهم من التدهور والارتباك ، فوقع الاختيار على طلب طلائع بن رزيك إلى مصر، فكتبوا إليه وهو حينئذ والى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه بقتل الظافر ويستنجدونه على عباس وابنه نصر ، وأرسلت إليه أخوات الظافر بشعورهن فى كتب كلها سواد ، وكتب إليه فيمن كتب القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب قصيدته الدالية التى أولها :

دهتنى عن نظم القريض عوَادى ... وشفَّ فؤادى شجوه المتمادى
وأرَّق عينى والعيونُ هواجعُ ... همومٌ أقضَّتْ مضجعى ووسادى
بمصرع أبناء الوصىِّ وعترة الـ ... نبى وآل الذاريات وصاد
فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم ... وما لهم من منعة وذياد
أولئك أنصار الهدى وبنو الردى ... وسم العدا من حاضرين وباد
لقد هد ركن الدين ليلة قتله ... بخير دليل للنجاة وهاد

---

(١) النجوم الزاهرة : ص ٢٩١ .

تَدَارَكْ من الإيمان قبل دثوره حشاشةَ نفسٍ آذنت بنفاد
وقد عاينت عيناك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد[١]

وهى طويلة كلها على هذا المنوال فى معنى النجدة .

« ولما بلغ طلائع الخبر امتعض من ذلك وجمع الجموع وحشد الجنود وقصد القاهرة . ولما علم عباس أنه لاطاقة له به جمع أمره وأسبابه وأهله وخرج من القاهرة ، فلما قرب من عسقلان وغزة خرج عليه جماعة من خيالة الفرنج فاغتر بكثرة من معه فلما حمل عليهم قتل أكثر أصحابه وانهزم الباقون ، وقتل عباس وأخذت الفرنج أمواله وهرب ابن المنقذ فى طائفة إلى الشام وأسر ابنه الكبير الذى قتل ابن سلار وصار الجميع للفرنج ومن هرب مات من الجوع والعطش » .

وهذا لَعَمرِى أدل شىء على ضعف سلطان الفاطميين ، ولولا الاضطراب السياسى وضعف الحكم الفاطمى فى داخل البلاد لما استطاع الفرنجة أن يستولوا فى أوائل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى على عدد غير قليل من الحصون والقلاع والممالك والأقاليم فى بلاد الشام وشبه جزيرة سيناء وخليج تيران . هذا على أنه قد حدث فى أيام العاضد بالله أثناء تسلط الوزير شاور على مقاليد الأمور دون الخليفة من ناحية وتعاونه مع الفرنجة والصليبيين من ناحية أخرى — أقول قد حدث فى هذه الفترة مثل الذى حدث إثر مقتل الخليفة الظافر . إذ حدث أن أرسل بعض نساء القصر الفاطمى خطابات إلى السلطان نور الدين زنكى حاكم سوريا وقتذاك يستغثن به ويستنجدنه على الوزير شاور . ويذكر المؤرخون أن نساء القصر كن يضعن أجزاء من ضفائر شعرهن فى الرسائل كما كن يصبغن كذلك قراطيس الخطابات بالسواد .

والقصد من هذه العجالة التاريخية التى تتبعت فيها أحوال الدولة الفاطمية فى القرن السادس الهجرى أن أقول إن سلطان الفاطميين قد ضعف من الناحيتين السياسية والعسكرية ، الأمر الذى أتاح لأهل السنة أن يتنفسوا فى مصر الصعداء ومن ثم استطاع ابن الكيزانى أن يجاهر فى نظمه وفى قوله وفعله بمذهبه السنى تحت سمع وبصر الخلفاء الفاطميين .

---

(١) النجوم الزاهرة : ص ٣٩٢ .

٢ ــ الأحوال الاقتصادية

وبعد هذا العرض الموجز للأحوال السياسية الداخلية والخارجية للدولة الفاطمية أنتقل إلى بيان الظروف الاقتصادية، فأقول إنها لم تكن أحسن حالا من الناحية السياسية بل إنها كانت أمر وأدهى . إذ أخذت الأزمات الاقتصادية وموجات الغلاء والفاقة والضنك تسود أرض وادى النيل، وذلك فى أكثر سنى القرنين الخامس والسادس الهجريين؛ وخير شىء يصور لنا ما حل بمصر فى تلك السنين من الجدب والقحط وسوء العيش ما ذكره العلامة المقريزى فى كتابه ــ إغاثة الأمة بكشف الغمة ــ وإليك نص ما قال[١] :

« وقع غلاء فى خلافة المستنصر ، ووزارة الوزير الناصر لدين الله أبى محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى، وسببه قصور النيل فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة » . وبعد ذلك قال :

« ثم حدث غلاء فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ، ووزارة الأفضل . بلغ القمح فيه كل مائة أردب بمائة وثلاثين ديناراً. فتقدم الخليفة إلى القائد أبى عبدالله ابن فاتك الملقب بعد ذلك بالمأمون البطائحى ــ أن يدبر الحال . فختم على مخازن الغلات . وأحضر أربابها وخيرهم بين أن تبقى غلاتهم تحت الختم إلى أن يصل المغل الجديد أو يفرج عنها وتباع بثلاثين ديناراً كل مائة أردب . فمن أجاب أفرج عنه . وباع بالسعر المذكور . ومن لم يجب أبقى الختم على حواصله . وقدر ما يحتاج إليه الناس فى كل يوم من الغلة ، وقدر الغلال التى أجاب التجار إلى بيعها بالسعر المعين . وما تدعو إليه الحاجة بعد ذلك بيع من غلات الديوان على الطحانين بالسعر فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن دخلت الغلة الجديدة فانحطت الأسعار . واضطر أصحاب الغلة المخزونة إلى بيعها خشية من السوس . فباعوها بالنزر اليسير ، وندموا على ما فاتهم من البيع بالسعر الأول » .

---

(١) انظر المقريزى ــ إغاثة الأمة بكشف الغمة ــ طبع بمصر سنة ١٩٥٦ ، ص١٧ إلى ص ٢٨ .

وبعد ذلك قال أيضاً :

« ثم وقع غلاء شنيع، وقحط ذريع ؛ فى أيام الحافظ لدين الله ووزارة الأفضل ابن وحش ، إلا أنه لم يستمر ، فإن الأفضل المذكور كان قد ركب إلى الجامع العتيق بمصر ، وأحضر كل من يتعلق به ذكر الغلة . وأدب جماعة من المحتكرين ومن يزيد فى الأسعار . ووظف عليهم القيام بما يحتاج إليه فى كل يوم . وباشر الأمر بنفسه . وأخذ فيه بالجد ، فلم يسع أحد خلافه . ولم يزل الحال كذلك إلى أن منّ الله تعالى بالرخاء وكشف عن الناس ما نزل بهم من البلاء . إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم » .

وقال أيضاً :

« ثم وقع غلاء فى أيام الفائز ، بوزارة الصالح طلائع بن رزيك . بلغ فيه الأردب خمسة دنانير لقصور ماء النيل عن الوفاء ، وكان بالأهراء من الغلات ما لا يحصى ، فأخرج جملة كثيرة من الغلال وفرقها على الطحانين وأرخص سعرها ومنع من احتكارها . وأحس الناس ببيع الموجود منها . وتصدق على جماعة من المتجملين والفقراء بجملة كثيرة . وتصدق سيف الدين حسين وغيره من الأمراء وأرباب الجهات بالقصر ، ما نفس عن الناس ، ولم يستمر الحال على ذلك — سوى مدة يسيرة حتى فرج الله ، وهجم الرخاء » .

هذا وليس القصد هنا أن نتتبع الظروف والأحوال الاقتصادية التى مرت بها مصر فى ظلال الدولة الفاطمية ، وإنما القصد كل القصد أن نقول إن سوء الأحوال الاقتصادية وكثرة النوائب والملمات التى كانت تنزل بالأمة المصرية أثناء حكم الفاطميين جعلت المصريين يتشككون فى صحة العقيدة الإسماعيلية ، وبخاصة ما كان منها منوطاً بالخليفة ، إذ كان دعاة الإسماعيلية يشيعون بين الناس أن الخليفة هو المتصرف وهو الذى يغيث الناس وقت الشدائد ويرزقهم عندما تضيق سبل العيش وهو الذى يبرئ المرضى ويطعم الجائعين ويقضى حاجات السائلين ، ومصداق ذلك كله قول ابن هانى الأندلسى يمدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

أقول إن ضنك العيش وسوء الأحوال الاقتصادية وكثرة الملمات وتعدد النازلات جعل المصريين يشكون فى صحة تعاليم الباطنية ، وأن يأخذوا بالتالى فى البحث عن الإله الحقيقى الذى هو وحده يستطيع أن يكشف عنهم الضر وينقذهم من سوء ما هم فيه ، وقد وجدوا مايبتغونه فى مذهب أهل السنة والجماعة . ومن ثم ألفيناهم يتجمعون فى شكل طلاب أو مريدين حول ابن الكيزانى .

٣ ــ الأوضاع الاجتماعية

كانت مصر تنقسم فى أوائل حكم الفاطميين إلى ثلاث طبقات هى :

الطبقة الأولى : طبقة الخليفة وأفراد بيته .

والطبقة الثانية : أرباب الدولة وأعضاء الجيش وكان أكثرهم من المغاربة .

والطبقة الثالثة : هى الرعية وهم سكان مصر المستقرون فيها قبل مجىء الفاطميين من مسلمين ومسيحيين .

وفى أخريات الدولة الفاطمية انضاف إلى الطبقات الثلاثة المذكورة طبقة جديدة هى جماعة السودان حيث كان الخلفاء الفاطميون قد أخذوا فى أخريات عهدهم يستعينون بقوات من السودانيين والأحباش .

فقد ذكر أبو شامة المقدسى فى كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين أنه كان أيام صلاح الدين الأيوبى ١٠٠ ألف مقاتل سودانى يحرسون القصر الفاطمى .

وقد كانت الظروف والأحوال الاقتصادية والاجتماعية والخلقية متفاوتة غير متكافئة بين تلك الطبقات .

* * *

هذا والكلام فى الأوضاع الاجتماعية متشعب ومجال البحث والدرس فيها متسع فسيح ، ولو كنت أحد فلاسفة الاجتماع أو مؤرخيه لكتبت فى هذا المقام مئات الصفحات ولقضيت فى سبيل البحث والتحقيق فى هذا الصدد عدة سنوات .

ولكنى لست فى هذا البحث بالمؤرخ ولا بالفيلسوف ، وإنما أنا فى الحقيقة وواقع الأمر مؤرخ أدبى ، ومؤرخو الأدب والشعر يأخذون من دراسة عصر الشاعر

– فى مختلف نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية – مايكفى لفهم نفسية الشاعر وتبين أطوار حياته وبالتالى يأخذون من دراسة عصره ما يعين على تفهم شعره وإدراك معانيه . لذلك كله أمسكت عنان القلم عن الإفاضة فى دراسة عصر ابن الكيزانى فى مختلف مظاهره وتعددجوانبه ، إذ أرى أن الأجدر بى أن أجمل القول وأوجز الكلام فى الظروف السياسية والعسكرية والأحوال الاجتماعية والفكرية ، والأوضاع الاقتصادية والأمور الخلقية، من حيث إنها كانت عوامل وأسباباً فى اختفاء الشعر الصوفى من على المسرح الأدبى المصرى فى القرن الخامس الهجرى . ثم عودته إلى الظهور فى ربوع وادى النيل من جديد فى القرن السادس ، على يدى رائد الطائفة الكيزانية .

الفصل الثانى

عوامل اضمحلال الشعر الصوفى فى مصر

فى القرن الخامس الهجرى وأسباب عودته إلى الظهور فى القرن السادس

بناء على ما قدمناه فى الفصل السابق نذكر هنا أنه قد خبت شعلة الشعر الصوفى وانطفأت جذوته فى القرن الخامس الهجرى، وذلك لأن الفاطميين كانوا قد عملوا على نشر مذهبهم فى ربوع مصر ، وحملوا الناس بشتى الوسائل ومختلف الأساليب على اعتناقه، فى حين بذلوا الجهد فى سبيل إضعاف المذاهب الإسلامية الأخرى. لذلك وجدنا أهل الفقه والتصوف يختفون من مصر طوال هذا القرن، على حين وجدناهم ينشطون فى بلاد المغرب والأندلس وفى العراق والموصل وفى بلاد نيسابور وبخارى وخراسان، وذلك لأن أهل مصر كانوا قبل حكم الفاطميين على مذهب أهل السنة والجماعة ، ولست أقول هذا جزافاً أو مبالغة، لا بل إنى قلت ما قلت عن تثبت واستيقان ، فقد تصفحت أكثر كتب التراجم والطبقات الخاصة كالكواكب الدرية لعبد الرؤوف المناوى، وطبقات الشافعية لعبد الرحيم الإسناوى، ولواقح الأنوار فى طبقات الأخيار للشعرانى، وطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى، وطبقات الشافعية لابن قاضى شهبة، والطالع السعيد لكمال الدين الأدفوى. وطائفة أخرى من كتب التاريخ والتراجم العامة كالوافى بالوفيات للصفدى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان، والنجوم الزاهرة، والمنهل الصافى، وكلاهما لابن تغرى بردى، وفوات الوفيات، وعيون التواريخ، وهذان كلاهما لابن شاكر الكتبى ، وتاريخ مصر لابن إياس، والبداية والنهاية لابن كثير، ومن كتب الشعر والشعراء والأدب والأدباء أذكر: الخريدة للعماد الأصفهانى ، ومعجم الأدباء لياقوت، وخزانة الأدب لابن حجة الحموى، وديوان الصبابة لابن أبى حجلة، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم لصلاح الصفدى، وروضة الأدب للشهاب الحجازى ، وغير هذه وتلك كثيرة فلم أجد شاعراً صوفياً ذكر فى أى مما ذكرت على أنه كان يعيش فى مصر أثناء القرن الخامس الهجرى، ولا فقيهاً متصوفاً وإن لم يك شاعراً . فكل الذين ذكرهم المناوى والشعرانى من

المتصوفة هم من الذين ماتوا فى المائة الخامسة وكانوا يعيشون إما فى المغرب أو فى المشرق، وليس من بينهم أحد على الإطلاق كان يعيش فى مصر أثناء تلك الفترة، وكذلك الحال بالفقهاء الذين ذكرهم تاج الدين السبكى فإنى لم أجد واحداً من هؤلاء الذين ذكرهم السبكى قد مات فى مصر، وأنه كان يعيش فيها خلال تلك الفترة، وجملة القول فى هذا القرن أنه قد خلا من شعر الفقهاء الزاهدين والصوفية النظريين، فى حين أنه زخر بالشعراء، ولكن شعرهم وأدبهم لم يكن ليقال فى سبيل التصوف وذكر الأحوال والمقامات وتصوير المواجيد والانفعالات التى تعترى عادة قلوب السالكين، ولا فى سبيل الموعظة والحكمة والزهد فى الدنيا؛ وإنما كان يقال إما فى وصف الطبيعة والغزل والنسيب مذكراً كان أو مؤنثاً، وفى مدح الخلفاء الفاطميين وذكر آراء الشيعة الإسماعيلية وغير ذلك مما فصلناه فى غير هذا المقام .

أما القرن السادس الهجرى فقد تبدلت فيه الظروف واختلفت الأحوال وتغيرت الأوضاع السياسية والاجتماعية فى مصر ، إذ أخذت الدولة الفاطمية منذ أن استهل هذا القرن تضعف وتضمحل وذلك من الناحيتين الخارجية والمعنوية ، وأعنى بالخارجية هنا الناحية السياسية والعسكرية ، وبالمعنوية عقيدة الشيعة الإسماعيلية بصفة عامة . وتقديس الخليفة الفاطمى بوجه خاص . فمن مظاهر ضعف الفاطميين من الناحية العسكرية انحسار سلطانهم عن الشام ومهاجمة الفرنجة أو الصليبيين لبعض القلاع والحصون والمدن المصرية أكثر من مرة وأنهم ، أعنى الفاطميين ، قد عجزوا عن صد هجوم الفرنجة والوقوف فى وجه الصليبيين الأمر الذى حملهم على أن يستنجدوا « بنور الدين زنكى » المرة تلو الأخرى حتى كانت النجدة الشامية الأخيرة بقيادة « أسد الدين شيركوه » والتى كان فيها « صلاح الدين الأيوبى » ذلك الرجل الذى قضى على الدولة الفاطمية ، وأرجع مصر إلى الخلافة العباسية وحول أهلها من متشيعين إلى أمة تعتنق مذهب أهل السنة والجماعة ، ولعل من أوضح مظاهر ضعف الدولة الفاطمية من الناحية السياسية والعسكرية فى هذا القرن انقسام السلطة (بسبب ضعف الخليفة) بين أسرتى الوزيرين « شاور وضرغام » ثم تلك الحرب الداخلية التى دارت بين هذين الوزيرين مدة سبعة أعوام .

أما مظاهر ضعف العقيدة الفاطمية فى هذا العصر ، فأهمها انقسام الدعوة إلى فرقتين « نزارية » وأخرى « مستعلية » أو « إسماعيلية » أو « الإسماعيلية الباطنية » والثانية هى « الإسماعيلية الغربية » وهى التى عرفت بالشيعة الفاطمية وسميت دولتها باسم « دولة العبيديين » تارة والدولة الفاطمية تارة أخرى . ثم تهاون الدعاة فى نشر تعاليم الفاطميين ، وتزعزع الإيمان بصحة تلك التعاليم فى صدور كثير من الوزراء وأصحاب الحيمنة والتسلط فى الدولة ، الأمر الذى جعل هؤلاء الرجال يستخفون بأمر الدعوة الفاطمية إلى درجة أن القائمين على أمر الدعوة فى مصر أرادوا أن ينقلوا مركز الدعوة من القاهرة إلى أرض اليمن ، حيث كانت تقوم دولة الصلوحيين التى كانت تتبع فى ذلك الحين الدولة الفاطمية من الوجهتين المذهبية والسياسية .

ومن مظاهر ضعف العقيدة الفاطمية ، وعدم الحرص عليها ، إنشاء الوزير « سلار » داراً للحديث بالإسكندرية ، وجعل أمر التدريس فيها إلى رجل من كبار أهل السنة وأحد أعلام حفاظ الحديث ، وأعنى به « الحافظ السلفى » وهى أول مدرسة أنشئت بعد دار العلم فى القطر المصرى . وأخيراً تلك المناقشات وضروب الجدل التى كانت تجرى فى دار العلم بين علماء الشيعة الفاطمية وشيوخ أهل السنة والجماعة ، ولولا أن الفاطميين أسرعوا بإقفال دار العلم ، وإخراج المتناظرين والمتجادلين فيها لأصبحت دار العلم التى أنشأها الفاطميون لأغراضهم الشيعية مدرسة تنتشر فيها تعاليم أهل السنة .

أما من الوجهة الاجتماعية والأخلاقية ، فإن كثيراً من رجال القصر الفاطمى وحشداً من الدعاة والمكاثرين ، قد استهانوا بالأخلاق الدينية والاجتماعية وكثيراً ما كانوا يلهون ويعبثون ، ويعقدون مجالس اللهو والشراب ويستمعون إلى الجوارى والقيان ، وبالجملة فقد كثر التحلل واستشرى الفساد بين أرباب الدولة ودعاتها ، الأمر الذى جعل المصريين يرتابون فى دعوى الفاطميين وأئمتهم ، أضف إلى ذلك ما كان ينتاب البلاد بين الحين والحين من الجدب والقحط وكثرة المجاعات بسبب انتشار الأوبئة وانخفاض ماء النيل ، وأن توسل المصريين بالأئمة الفاطميين لم يك يجديهم فى درء تلك الكوارث وهاتيك النازلات ، وذلك على خلاف ما كان

يعتقد المصريون أو ما كان يدعيه الفاطميون وشيعتهم من أن الإمام يضر وينفع ، وأنه يفعل ما يشاء، وأنه يستطيع إذا شاء تغيير مجرى القدر .

أقول : تدبر المصريون تلك الدعاوى وقاسوها بواقع الأمر فوجدوا أن الخليفة بشر ، له ما لهم من صفات العجز والضعف وعدم القدرة على تغيير مشيئة الله فراحوا يبحثون لأنفسهم عن طريق غير التشيع تكسبهم رحمة الله ، وتستدر عليهم منّه وكرمه ، فكان أن تصوفوا ، أو قل ظهر بين ربوعهم جماعة تدعو إلى تزكية النفوس وتصفية القلوب ، وتهذيب الأخلاق بغية التقرب من الله والتزلف إليه عساه أن يقيهم سوء العاقبة وينقذهم من طغيان الحدثان ، وكانت هى أول فرقة صوفية ظهرت فى مصر منذ أخريات القرن الرابع الهجرى حتى أخريات الربع الأول من القرن السادس، وقد عرفت هذه الجماعة الصوفية باسم الطائفة الكيزانية نسبة إلى رائدها — أو قل شيخها — وراسم منهجها وأعنى به أبا عبد الله محمد بن إبراهيم ابن ثابت المشهور بابن الكيزانى ، وهو موضوع الدراسة فى هذا الكتاب .

الفصل الثالث

فنون الشعر المصرى ومدارسه

فى القرن السادس الهجرى بوجه عام

١ — موضوعاته وأغراضه

كان الشعر العربى فى مصر أثناء حكم الفاطميين يقال فى نفس الموضوعات والأغراض التى كان يقال فيها الشعر العربى فى مختلف الأقطار العربية فى الماضى والحاضر على السواء، إذ من المعروف عن الأدب العربى أنه قيل فى جميع أعصاره ومختلف بيئاته فى المدح والرثاء والفخر والحماسة والهجاء ، وفى وصف المرأة والطبيعة بما فيها من أرض وسماء وشمس وبدر وهواء وماء، وفى وصف النباتات والأزهار والحدائق والأنهار، وفى ذكر الحاذر والظباء والأشجار والأطيار، ثم فى تصوير ما تنفعل به النفس من أحوال عاطفية ومعان فكرية واعتقادية، وأعنى بالحالات العاطفية مايعتور القلب من انفعالات وأحاسيس شعورية وجدانية تحدث للشاعر أو الأديب بسبب ما يصادفه فى حياته من مسرات وأحزان ولذات وآلام ومن أفراح وأتراح، وأقصد بالمعانى الفكرية تلك الآراء والنظريات التى يستخلصها الشاعر أو الأديب من تجاربه ومشاهداته لما يقع فى هذه الحياة من نوائب ومصـــائب وكوارث ونازلات فردية أو جماعية مما يرد العقل بعضه إلى غائلة الدهر وطغيان الحدثان وبعضه الآخر إلى سوء أعمال بنى الإنسان ، وذلك كتلك الحكم والأمثال التى وجدناها فى شعر زهير وطرفة قبل الإسلام، وفى شعر بشار ورؤبة وغيرهما فى العصر الأموى، وعند أبى العتاهية وأبى تمام ثم المتنبى وأبى العلاء فى العصور العباسية .

وأما المعانى الاعتقادية فقد عَنَيت بها تلك الآراء الدينية التى ضمنها الشيعة والخوارج أشعارهم فى العصر الأموى ثم الشيعة والزنادقة وأهل السنة والمتصوفة فى

العصور العباسية المختلفة فى شتى البقاع الإسلامية فى العراق والشام ومصر وخراسان وغيرها من الأقاليم والبلدان .

أقول إن الشعر المصرى كان يقال أيام الفاطميين فى جميع ما ذكرناه من موضوعات ومعان وأغراض، إذ تحدث الشعراء فى زهو وافتخار عن انتصارات جيوش المعز لدين الله الفاطمى ثم عما أحرزه الخلفاء من بعده من انتصارات فى مختلف ربوع الشام على ولاة بنى العباس من جهة وانتصاراتهم على الفرنجة والصليبيين فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس من جهة أخرى .

ثم أنشد المصريون أشعارهم فى وصف النيل وما كان وقت ذاك على ضفافه من حدائق ومتنزهات وفى وصف الرياض والبساتين وفى الخمرة ومجالس الشراب وما إلى ذلك من أدوات الشراب وأوعيته كالكأس والطاس والقنانى والدنان وفى الغزل بالمذكر والمؤنث وفى مدح الأمراء والوزراء وفى الذم والهجاء وفى عقيدة الشيعة الإسماعيلية مما نجده واضحاً فى شعر ابن هانئ الأندلسى والمؤيد فى الدين الشيرازى، هذا والقصد مما تقدم أن أقول إن الشعر المصرى أيام الفاطميين لم يأت بجديد فى موضوعاته وأغراضه من حيث الصورة الكلية أو الإطار العام . أما المعانى التفصيلية والصور الجزئية والأغراض الفردية فإنها كانت جديدة بوجه عام وذلك تبعاً لتجدد المرئيات والمشاهدات وتطور المذاهب والمعتقدات ، فمثلا وصف الساقية التى تدور لتنقل ماء النيل إلى الرياض والبساتين صورة جديدة ، ووصف ابن هانئ الأندلسى المعز لدين الله بأنه الواحد القهار جديد كذلك أيضاً إذ أن هذه الصفة بالذات وما إليها من عقائد الفاطميين لم تك إحدى تلك النظريات التى تحدث عنها الشيعة فى أشعارهم أيام بنى أمية ولا فى عهد بنى العباس وكذلك صورة الساقية فإنها لم يك لها وجود لا هى ولا غيرها من مظاهر الطبيعة المصرية وأرض وادى النيل عند شعراء العرب الآخرين لأن كل شاعر إذا وصف فإنه يصف البيئة التى يعيش فيها والأشياء التى يراها والأمور التى يشاهدها .

هذا على أن شعراء الفاطميين قد طوروا عدداً من فنون الشعر من حيث الصياغة والمضمون وذلك كفن الإجازة والتمليط .

٢ — فن الإجازة والتمليط

أقول قد طوّر شعراء هذا العصر فن الإجازة ، وهو أن يقول شاعر شطر بيت فيتمه الآخر ، أو بيتاً وربما بيتين ثم ينشد الثانى مثلما أنشد الأول من نفس البحر والقافية ، بحيث يكون فى شعر الثانى تمام المعنى الذى أنشد فيه الأول. ويظهر تطوير المصريين لهذه الإجازة الشعرية التى كان يعقد لها الشعراء المجالس والندوات بقصد اختبار ملكات الشعراء ومعرفة أيهم أقدر على ارتجال الشعر ، أقول يظهر تطوير المصريين لهذا العمل الأدبى فى وجهين : الأول هو أن شعراء هذا العصر ونقاده اصطلحوا على تقسيم الإجازة إلى نوعين : أحدهما إجازة معاصر لمعاصر ، والثانى إجازة المعاصر لشاعر قديم . والوجه الثانى هو أن المصريين جعلوا للإجازة شروطاً وتقاليد لم تلك معروفة من قبل بحيث أضحت الإجازة فى هذا العصر تغاير فى مفهومها تلك التى تعارف عليها الشعراء السابقون ، وقد أدرك شعراء هذا العصر ونقاده ما بين صنيعهم وصنيع السابقين من وجوه الخلاف ، فاصطلحوا على تسمية صنيعهم هذا بالتمليط .

وقد شرح ابن ظافر هذا اللون من الرياضة الشعرية فقال : « هو أن يجتمع شاعران فصاعداً على تجريد أفكارهم وتجريد خواطرهم فى العمل فى معنى واحد » فمن تعريف ابن ظافر للتمليط نتبين الفرق بينه وبين الإجازة بمعناها القديم إذ أن التمليط مشروط فيه تهيؤ الشعراء له وسبق علمهم بانعقاد المجلس الذى تتم فيه تلك المباراة الشعرية ، فى حين كانت الإجازة فيما مضى تجىء على غير علم سابق من الشاعرين المستجازين . فمن ذلك على سبيل المثال ماذكره على بن ظافر من أنه اجتمع هو والقاضى الأغر أبو الحسن على بن المؤيد الغسانى يوماً بالرصد فرأيا شعاع الأصيل فوق بياض الماء ، فقال ، أعنى ابن ظافر ، أذكت الشمس على الماء لهب . . . وطلب من الأغر إجازة هذا القول فقال : فكست فضته منها ذهب . . .

فها أنت ذا ترى أن الشاعرين قد التقيا على غير موعد وأن الإجازة وقعت بينهما دون ما تهيؤ لها ومن غير سبق تفكير .

على أن الإجازة والتمليط والمطارحة فى الشعر لم تلك مقصورة فى هذا العصر على فئة من الشعراء دون أخرى ، بل كان جميع الشعراء محترفين وغير محترفين ، متصوفين وغير متصوفين ، يضربون بسهم وافر فى هذا العمل الأدبى .

٣ ــ فن الفكاهة

ومن الفنون التى طوّرها شعراء هذا العصر وبرزت فيه شخصيتهم بكل ما فيها من خصائص الزمان والمكان : الفكاهة ــ وهى تقوم على عمق الفكرة وسرعة البديهة وفرط الذكاء من جهة وعلى القدرة بالتلاعب فى الألفاظ . . . أو بالأحرى اصطناع التورية من جهة أخرى . والمصريون بطبيعتهم فكهون يكثرون من التملح والتظرف والتنكيت . . .

وإليك ــ مثلا ــ مما نظمه شعراء هذا العصر على سبيل التفكه والمداعبة قول الأسعد بن مماتى فى رجل رآه بدمشق :

حكى نهرين ما فى الأرض من يحكيهما أبدا
حكى فى خلقه ثَوْرِى وفى أخلاقه بَرَدَا

فالشاعر هنا كما ترى يصف أخلاق هذا الرجل الدمشقى بالبرود الشديد، وهو وصف ساخر أراد به الشاعر أن يضحك الناس من ذلك الإنسان .

على أن التفكه والتظرف فى الشعر لم يك وقفاً على جماعة دون أخرى من شعراء هذا العصر بل أقول إنهم جميعاً مارسوا ذلك الفن سواء منهم من غلبت عليهم صفة الشعر والأدب أو من اصطبغوا بالتدين فقهاء كانوا أم متصوفين .

٤ ــ مدارس الشعر فى هذا العصر

ذهب بعض الباحثين إلى أن مدارس الشعر أيام الفاطميين كانت ثلاثاً هى : مدرسة العقائد وهى التى كان شعراؤها ينشئون قريضهم فى مدح الخلفاء الفاطميين مضمنين إياه آراء الشيعة الإسماعيلية ومصطلحاتهم وذلك كشعر ابن هانئ الأندلسى والمؤيد فى الدين الشيرازى . والثانية مدرسة السهولة والرقة وهى التى كان شعراؤها يختارون فى قريضهم أوضح الأساليب ويستعملون أسهل الألفاظ . ولا يتكلفون فى التعبير ولا يبهمون فى المعنى ، بل كانت عباراتهم سلسلة سهلة ومعانيهم واضحة رقيقة وذلك كأشعار الأمير تميم وأبى الرقعمق وابن وكيع التنيسى . والثالثة هى ما أطلقوا عليها اسم مدرسة الكتاب ، وذلك عبارة عن شعر القضاة وكتاب الدواوين ،

وهؤلاء كلفوا بالصنعة واستكثروا فى شعرهم من المحسنات. وقد زعم أهل هذا الرأى أن تلك المدارس جميعاً قد استمرت فى العصر الأيوبى على ما كانت عليه أيام الفاطميين بكل ما لها من خصائص فنية ومعان وأغراض وبنفس الطرق والأساليب التى كانوا يصطنعونها فى تصوير تلك المعانى وشرح هاتيك الأغراض . وقد تزعم فى رأيهم مدرسة السهولة والرقة أثناء العصر الأيوبى — البهاء زهير كما نسبوا مدرسة الكتاب فى هذا العصر إلى القاضى الفاضل ثم إلى خلفه ابن سناء الملك . ونحن لا نوافقهم على ذلك التقسيم لا من حيث الخصائص الفنية والأساليب التعبيرية ولا من حيث المعانى والأغراض . كما أننا لا نوافقهم كذلك على ما ذهبوا إليه من أن مدرسة العقائد ومدرسة السهولة والرقة لم يكن لهما قبل العصر الفاطمى فى الأدب العربى وجود . إذ يقررون أن الشعر المصرى امتاز أيام الفاطميين وفى عصر الأيوبيين عن الشعر العربى فى جميع أدواره وأعصاره على اختلاف بقاعه وأصقاعه بظاهرتين فنيتين ، إحداهما السهولة والرقة التى هى طابع الغزليين .

أما الثانية فهى تلك النعوت الدينية التى أكثر شعراء الفاطميين من تضمينها قصائدهم التى كانوا ينشئونها فى مدح الأئمة والوزراء والتى كان قولها يعد كفراً ومروقاً من الدين فى رأى أهل السنة وجماعة المسلمين ، وتلك الظاهرة كانت هى الطابع المميز لما أسموه مدرسة العقائد . وإن هذه الظاهرة قد استمرت فى الشعر الأيوبى على أنها نوع من الغلو فى الوصف والمبالغة فى نعت الممدوحين .

أقول إنى أخالف هذا البعض من الباحثين فى تقسيمهم الشعر المصرى إلى تلك المدارس المذكورة ، لأن تقسيمهم هذا غير قائم على أساس سليم لا من الوجهة الفنية ولا من الوجهة الموضوعية ، أما الفنية فلأن كل من أنعم النظر فى الأدب العربى منذ العصر الجاهلى حتى هذا العصر الذى نؤرخه يجد أن الشعر العربى فى جميع مراحله كان من حيث الخصائص الفنية المتمثلة فى اختيار الأوزان وانتقاء الألفاظ واصطناع الأساليب على ضربين : أحدهما غلب عليه ضخامة الأوزان وجزالة الأسلوب والاستكثار من المحسنات البديعية ، وقد اصطلح نقاد الأدب العربى فى القديم والحديث على تسمية هذا النوع بشعر الصنعة ونعتوا أصحابه بأنهم صناع متكلفون . وأما الثانى فقد غلب عليه خفة الأوزان وجزء البحور وقلة التفعيلات وسهولة الألفاظ والبعد عن

الصنعة والتكلف ورقة الأسلوب وقرب المآخذ ووضوح القصد وعدم التعقيد فى المعنى والبعد عن كل تكلف فى اللفظ وتعقيد فى التعبير . وقد وصف أهل الذوق السليم من نقاد الأدب العربى فى القديم والحديث أيضاً هذا النوع بأنه شعر الطبع . وقالوا عن أصحابه إنهم موهوبون مطبوعون ، فمن أمثلة النوع الأول فى العصر الجاهلى شعر طرفة وزهير والأعشى ، فإن شعر هؤلاء وأمثالهم قد غلبت عليه الصنعة وكثر فيه الغريب وبعدت معانيه وسادت ألفاظه الخشونة وتعقدت فيه الأساليب . ومن أمثلة النوع الثانى فى هذا العصر أيضاً شعر النابغة الذبيانى وعمرو بن كلثوم وشعر امرئ القيس فى أكثر الأحيان ، فإن الذى يقرأ شعر هؤلاء وأمثالهم يستسهل ألفاظ شعرهم على بعد الزمان والمكان ويستسيغ أساليبهم ولا يجد فى فهمها كبير عناء . ومثال شعر الصنعة فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية أشعار الفرزدق والأخطل ومن حذا حذوهما ، فإن هؤلاء جميعاً كانوا ينشدون الشعر فى أوزان ضخمة وبألفاظ فخمة وفى أساليب بها كثير من الإبهام والتعقيد ، ومن أمثلة النوع الثانى فى هذا العصر — عصر بنى أمية وصدر الإسلام — عمر بن أبى ربيعة فى مكة والأحوص فى المدينة ، فإن هذين الشاعرين وأمثالهما كانوا يتخيرون لشعرهم أخف الأوزان وأسهل الألفاظ وأوضح العبارات كما أنهم قد تجنبوا التكلف فى الفن وابتعدوا عن الإبهام فى الأسلوب والتعقيد فى التعبير كما استكثروا كذلك من جزء البحور وقللوا من تفعيلات الأوزان ، وفى العصر العباسى وجدنا السهولة والرقة والوضوح والسلامة من التعقيد والخلو من الصنعة والتكلف فى شعر أبى نواس وأبى الحسين الخليع وغير هؤلاء كثير . أما شعر الصنعة والكلف بالمحسنات البديعية واصطناع التعقيد فى التعبير والالتواء فى الأساليب والإبهام فى القصد والاعتساف فى المعنى فقد وجدنه أثناء هذا العصر على كثرة عند أبى تمام الذى بلغ من إغرابه فى اللفظ وتعقيده فى الأسلوب أن قال له ذات مرة أحد الأمراء وكان ذواقة للشعر : لم لا تقول ما يُفهم يا أبا تمام؟ فقال له : ولم لا يفهم ما يقال . .

والواقع أن جواب أبى تمام فيه مغالطة ومكابرة وأن الذى نقده كان على صواب فى نقده إياه لأن الكلام الغامض فى الحقيقة مخالف لطبيعة العمل الفنى إذ أن العمل الفنى لا يكون بحق عملا فنيًّا إلا إذا اتسم بالوضوح ، أما كونه محتملا

معانى عدة بحيث لو فهم بكل منها على حدة لكان مستقيما فذلك غير داخل فى باب التعقيد والإبهام وإنما هو فى رأيى دليل على بلاغة الشاعر وقدرته على الخلق والإبداع . ومثل أبى تمام فى التكلف والصنعة والإغراب فى اللفظ والإبهام فى المعنى أبو الطيب المتنبي فى أكثر أشعاره ، ومثلهما كذلك كان أبو العلاء المعرى فى القرن الخامس الهجرى .

والقصد من كل ما قدمناه أن نقول إن الشعر العربى انقسم فى جميع مراحله وأعصاره على اختلاف بيئاته وأقطاره من حيث الخصائص الفنية التى مناطها الأوزان والألفاظ وطرق التعبير إلى مدرستين اثنتين فقط هما مدرسة الطبع ومن أهم خصائصها سهولة اللفظ وخفة الأبحر ورقة المعنى وسلاسة التعبير ، والثانية هى مدرسة الصنعة ومن أهم خصائصها ضخامة الأوزان وجزالة الألفاظ وكثرة المحسنات ، وعلى كل من منهجى هاتين المدرستين جرى فريق من شعراء المصريين أيام الفاطميين وفى عصر بنى أيوب ، أعنى أن شعراء الفاطميين والأيوبيين انقسموا إلى مدرستين من حيث الخصائص اللفظية والمقاييس الفنية ، وقد اصطلحت على تسمية إحداهما بمدرسة الصنعة والبديعيات ، والأخرى سميتها مدرسة السليقة والطبع ، فكل شعر ضخمت أوزانه وجزلت ألفاظه وكثرت فيه المحسنات البديعية والمصطلحات العلمية كان فى رأينا جارياً على منهج مدرسة الصنعة والبديعيات سواء أكان قائله ممن نسبوا إلى مدرسة الكتاب أو إلى مدرسة السهولة والرقة أو إلى مدرسة العقائد حسبما كان عليه اصطلاح الذين هم سبقونى بالكتابة فى هذا المضمار .

وكل شعر سهلت ألفاظه وخفت أوزانه ورقت معانيه ولم نشم منه رائحة التكلف والاعتساف ولم نجد فيه شيئاً من تعقيد الأسلوب وإبهام التعبير فإننا ننسبه إلى مدرسة السليقة والطبع سواء أكان قائله المؤيد فى الدين أم القاضى الفاضل وابن سناء الملك أم البهاء زهير وابن مطروح أم عمر بن الفارض ، وذلك لأنه اتضح لنا من تتبعنا أحوال شعراء ذينك العصرين وما خلفوه من قصائد وأشعار أنه لم يخل شاعر أيًّا كانت صبغته من التأثر بغيره والتأثير فيه وأن كلا من أعلام المدرستين خالف فى بعض قصائده طابع مدرسته بحيث لو قرأنا تلك القصيدة ولم نعرف أن قائلها هو القاضى الفاضل مثلا لنسبناها على البديهة إلى البهاء زهير أو إلى غيره من شعراء السليقة

والطبع . وهكذا وجدنا الحال عند أكثر شعراء هذا العصر الذى ندرسه فإنه ما من أحد منهم إلا قد وجدنا له شعراً خالف فيه منهجه وطابع مدرسته بوجه عام . . .

أما عن مدرسة العقائد والتى ادعى أنها وجدت فقط فى مصر أيام الفاطميين وأن خصائصها الفنية ظلت على ما هى عليه فى شعر الأيوبيين فإننا نرفض ذلك ولا نقبله بحال من الأحوال وذلك لأن المصطلحات الشيعية الكيسانية والآراء الإمامية وغير ذلك من الأفكار الدينية قد ظهرت فى الشعر العربى منذ العصر الأموى فهذا كثيّر عزة يشرح عقيدة الشيعة الكيسانية ويبين رأيهم فى الإمامة إذ يقول :

ألا إن الأئمـــة من قريش ولاة الحق أربعـــة ســـواء
علىّ والثـــلاثـــة من بنيـــه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمـــان وبـــر وسبط غيبتـــه كربـــلاء
وسبط لا يذوق المـــوت حتى يقود الجيش يقـــدمه اللواء
تغيب لا يـــرى فيهم زماناً برضوى عنـــده عسل ومـــاء

فهذا شاعر شيعى قد ضمن هذه الأبيات كما ترى عقيدة الشيعة الكيسانية وهى تتلخص فى أن الإمامة محصورة فى على والثلاثة من بنيه هم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية . . . وأن الإمامة انتقلت فعلا من على إلى الحسن ثم منه إلى الحسين ومن الحسين إلى محمد بن الحنيفة ، وأن محمداً هـــذا لم يمت ، ولكنه تغيب عن الأنظار حيث أقام فى مكان مجهول بجبل رضوى وأنه سوف يظل حيًّا يرزق حتى يأذن الله له بالظهور فيعود على رأس جيش لكى يهزم دولة الظلم والفساد ، ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً، وهكذا ظلت الشيعة ثم المتصوفة وكثير من أهل الزندقة والإلحاد وأصحاب النظريات والعقائد والنحل على وجه العموم يضمنون قصائدهم ما كانوا يؤمنون به أو يعتقدونه من نظريات وآراء وذلك طوال العصور المتلاحقة منذ صدر الإسلام حتى العصر الذى ندرسه .

والقصد من كل ما أسلفناه أن نقول إن مدارس الشعر المصرى فى هذا العصر الذى ندرسه ليست على ما ذكره بعض الباحثين المحدثين لا من حيث التسمية ولا من حيث التقسيم إذ نرى أن شعراء ذلك العصر انقسموا من حيث المعانى والأغراض

أو الموضوعات التى كانوا يتشئون فيها القريض إلى طرق وطوائف متعددة . فمنهم الشيعة الإسماعيلية وهؤلاء ظلوا حتى نهاية القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجريين فى أنحاء متفرقة من المدن والأقاليم كإدفو وإسنا وأسوان وحتى مصر والقاهرة ، فقد روى لنا الإدفوى فى طالعه والصفدى فى وافيه وغيرهما أشعار كثير من الأعلام الذين ماتوا فى أخريات القرن السابع وأوائل القرن الثامن ، وفى تلك الأشعار مصطلحات فاطمية وآراء إسماعيلية ، ومنهم المتصوفون وقد كانوا فى هذا العصر متحدين غير مختلفين متفقين غير متنافرين فيما بينهم وبين الفقهاء الزاهدين إذ لم نجد بين الصوفية والفقهاء أى تشاحن أو تباغض فى القرن السادس الهجرى ، وذلك راجع فيما أعتقد إلى أن المتصوفين والفقهاء الزاهدين كانوا متعاونين فيما بينهم على الوصول إلى هدف واحد جمع بين قلوبهم ووحد آراءهم وأعنى بذلك مقاومة المذهب الإسماعيلى ، ومن ثم وجدنا شعر المتصوفين والفقهاء الزاهدين يختلط بعضه ببعض أثناء القرن السادس الهجرى وذلك من حيث المعانى والمضامين ومن حيث الأساليب وطرق التعبير .

هذا على أن شعر التصوف لم تتعدد فنونه ولا اختلفت تياراته اختلافها الذى وجدناها عليه فى القرن السابع الهجرى . أعنى أن فنون الشعر الصوفى لم تكن متعددة إبان القرن السادس الهجرى من حيث الاتجاه الروحى ، بل أقول إن الشعر الصوفى من هذه الناحية كان يعتبر فنًّا واحداً إذ أننا لم نجد بين من تصوفوا فى مصر أثناء ذلك القرن فرقاً وطوائف تتعدد وتختلف تبعاً لتعدد اتجاهاتها الروحية واختلاف تعاليمها الصوفية ، وإنما كانوا من حيث الاتجاهات الروحية والتعاليم الصوفية والمراسيم الخلقية يعتبرون فى الحقيقة وواقع الأمر طائفة واحدة ، وبناء على هذا نستطيع أن نقرر هنا أن الشعر الصوفى المصرى كان فى القرن السادس الهجرى غير متعدد الفنون ولا مختلف التيارات بل كان فى واقع أمره ووفق ما وجدناه عليه فى القصائد والأشعار التى وصلت إلينا مصطبغة بصبغة التصوف ذا منهج أدبى واحد وإن انقسم من حيث المعانى والمضامين ومن حيث الفكرة والغرض إلى فنين اثنين :

شعر الوعظ والإرشاد ، وفن الغزل والحب الإلهى . وهناك مدرسة ثالثة تحدثت فى شعرها عن واقع الحياة المادية إذ وصف أفرادها طبيعة الأرض ومشاهد السماء وصوروا بدائع الخلائق وجمال الكائنات ، وقد اقتصر بعضهم على وصف نوع من

أنواع الكائنات كالمرأة فأبرزوا مفاتنها وذكروا محاسنها وهؤلاء عرفوا باسم الغزليين أو الغراميين ، وآخرون كلفوا بالحدائق والأنهار والأشجار والأطيار ،تغنوا بجمال الزهور والورود ووصفوا الشمس وقت الأصيل وصوروا أحاسيسهم وما انفعات به نفوسهم من مختلف مناظر الأرض والسماء وهؤلاء عرفوا باسم وصاف الطبيعة ، ونحن نطلق على هذه المدرسة بكل مافيها من فنون واتجاهات اسم مدرسة الطبيعة والغزل .

هذا من حيث موضوعات الشعر واتجاهاته الفكرية ، أما من حيث القوالب اللفظية والمقاييس الفنية فإن شعر هؤلاء الشعراء جميعاً قد انقسم فى رأينا إبان العصر الفاطمى إلى مدرستين نسمى إحداهما مدرسة الصنعة والبديعيات وقد تزعم هذه المؤيد فى الدين الشيرازى ثم مضى على أثره فى أخريات القرن السادس الهجرى القاضى الفاضل . والثانية نطلق عليها اسم مدرسة السليقة والطبع وقد تزعم هذه فى العصر الفاطمى الأمير تميم وابن وكيع التنيسى ثم قفى على أثرهما فى العصر الأيوبى البهاء زهير .

الباب الثانى

حياة ابن الكيزانى

الفصل الأول

اسمه ونسبه . كنيته ولقبه

اختلف الذين ترجموا لابن الكيزانى فى الأسلوب والعبارة التى أوردوا بها اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ، وذلك من حيث القصر والطول ، ومن حيث التقديم والتأخير .

فهذا العماد الأصفهانى — وهو ممن عاشوا وماتوا فى القرن السادس الهجرى — يقول فى ذكر اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ، ما نصه[1] :

« الفقيه ابن الكيزانى المصرى الواعظ الشافعى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرج الأنصارى ، المعروف بابن الكيزانى » .

أما أبو محمد يوسف سبط أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، المتوفى سنة ست وخمسين وستمائة هجرية — فإنه قال فى كتابه « مرآة الزمان » أثناء ترجمته لابن الكيزانى ، ما نصه[2] :

« محمد بن إبراهيم أبو عبد الله الكيزانى » .

أما ابن خلكان ، المتوفى سنة إحدى وثمانين وستمائة هجرية — فقد قال[3] :

« أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت بن إبراهيم بن فرج الكنانى المقرى الشافعى المصرى ، المعروف بابن الكيزانى ، الشاعر المشهور » .

أما على بن موسى ، المعروف بابن سعيد المغربى ، والمتوفى سنة خمس وثمانين وستمائة هجرية ، فقد خالف كل من ترجموا لابن الكيزانى ، من الذين هم ماتوا

---

(١) العماد الأصفهانى — خريدة القصر وجريدة العصر — قسم شعراء مصر جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) جـ ٨ ص ١٥٧ . (٣) جـ ٤ ص ٨٦

فى القرن الذى مات فيه ، كالعماد الأصفهانى ، والذين هم ماتوا فى القرن الذى يليه مباشرة ، كسبط بن الجوزى ، وابن خلكان ؛ إذ جعل ابن سعيد اسم « ثابت » ، اسماً لأبى ابن الكيزانى ، كما سمى جده بإبراهيم ، واقتصر على ذلك ، إذ قال ما نصه [١] :

« أبو عبد الله محمد بن ثابت بن إبراهيم الكيزانى » .

وإذا تركنا المؤرخين ، وأصحاب التراجم ، من أهل القرنين السادس والسابع الهجريين ، إلى من صنفوا فى طبقات الرجال ، وتراجم الأعلام ، من أهل القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، فإننا نجدهم يختلفون كذلك فى نسب ابن الكيزانى ، تبعاً لاختلاف السابقين .

فهذا العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، المتوفى سنة أربع وستين وسبعمائة هجرية — يوافق فى روايته سلفه ابن خلكان إذ يقول[٢] :

« محمد بن إبراهيم بن ثابت بن إبراهيم بن فرج الكيزانى » .

أما القاضى تاج الدين عبد الوهاب السبكى ، المتوفى سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة للهجرة — فإنه قد وافق فى روايته رواية العماد الأصفهانى ، إذ قال[٣] :

« محمد بن إبراهيم بن ثابت بن عبدالله بن فرج بن الكيزانى » .

أما ابن الزيات ، صاحب كتاب « الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة » ، — المتوفى سنة ٨١٤ هـ — فقد خالف كل من تقدم ، إذ قال[٤] :

« أبو عبد الله محمد بن أبى الفرج بن إبراهيم بن ثابت ، المعروف بابن الكيزانى » .

وأما الأمير أبو المحاسن ، يوسف بن أيبك ، المشهور بابن تغرى بردى ، المتوفى سنة ٨٧٤ هـ — فقد وافق فى روايته كلا من السبكى ، والأصفهانى ، وابن خلكان ،

---

(١) ابن سعيد — المغرب فى حلى المغرب — جـ ١ الخاص بمصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٣ .

(٢) الصفدى — الوافى بالوفيات — جـ ١ ص ١٤٧ طبع استانبول سنة ١٩٣١ .

(٣) السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — جـ ٤ ص ٦٥ طبع القاهرة .

(٤) ابن الزيات — الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة — جـ ١ ص ٣٠٣ طبع القاهرة سنة ١٩٠٧

والصفدى ، مع اقتصاره على ذكر اسمه واسم أبيه وجده وكنيته ولقبه فقط ، إذ قال[١] :

« أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت المصرى الكيزانى » .

أما العلامة شمس الدين السخاوى ، المتوفى سنة ٩٠٢ هـ — فقد وافق فى روايته رواية سلفه ابن الزيات ، مع زيادة لقب شمس الدين ، إذ قال[٢] :

« الشيخ شمس الدين ابن عبد الله محمد بن أبى الفرج بن إبراهيم بن ثابت ، المعروف بابن الكيزانى » .

وبناء على ما أسلفناه من الروايات والأخبار المتعلقة بنسب الكيزانى ولقبه وكنيته ، أستطيع أن أقول ، إن نسبه الصحيح ، هو الذى أجمعت عليه جمهرة الثقات ، من الرواة والمؤرخين ، والجهابذة الناقدين ، والفقهاء المتأدبين ، من أهل القرن السادس والسابع والثامن للهجرة ، كالعماد الأصفهانى ، وسبط بن الجوزى ، وابن خلكان ، والصلاح الصفدى ، والقاضى تاج الدين عبد الوهاب السبكى . وإليك نسبه مستخلصاً من أقوال وأخبار كل هؤلاء :

« محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرج بن عبد الله ؛ لقبه شمس الدين ، وكنيته أبو عبد الله ، وشهرته ابن الكيزانى ، ينتهى نسبه إلى الأنصار ، ومن ثم قالوا الأنصارى ونسب إلى مصر ، مسقط رأسه ، ودار حياته ، فقيل المصرى تارة ، وقيل الكنانى تارة أخرى ، أما شهرته بابن الكيزانى ، فقد ذكروا ، أن ذلك كان نسبة إلى صناعة الكوز » .

هذا ، ولم نأخذ برواية ابن سعيد ، اومن جاء بعده ، كابن الزيات ، والسخاوى ، لأن أخبارهم عن نسب الكيزانى ، مخالفة لما اتفق عليه الرواة الثقات ، وأغلب الظن ، أن رواية ابن سعيد ، والسخاوى ، وابن الزيات ، قد دخلها جميعاً التحريف والتصحيف ، ولعل مصدر ذلك ، هم النساخ ، وليسوا — فى رأينا — هم المؤلفين .

---

(١) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة — جـ ٥ ص ٣٧٦ طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ .

(٢) نور الدين السخاوى — تحفة الأحباب وبغية الطلاب — جـ ١ ص ٣٨٥ طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ .

الفصل الثانى

مولده ونشأته

لم يذكر أحد من الرواة والمؤرخين الذين ترجموا لابن الكيزانى ، شيئاً عن المكان والزمان الذى ولد فيه ، ولا عن فترة صباه ، الأمر الذى يجعلنا نقف حائرين ، حيال مولده ونشأته ، لا ندرى ماذا نقول :

وقد تدبرت هذه القضية مليًّا ، وأطلت فيها التفكير ، عساى أهتدى إلى شىء يلقى بصيصاً من النور ، على مولده ونشأته ، ولكن ذلك التدبر ، وهذا التفكير ، قد ذهب دون جدوى ، وكان جهداً فى غير طائل ، غير أنى أبيح لنفسى أن أقول على سبيل التخمين ، إنه ولد بالفسطاط ، وهى التى كان يطلق عليها فى زمنه ، اسم (مصر) ، وفيها نشأ وترعرع وبلغ الأشد ، وأغلب الظن ، أنه كان يلهو مع لِداته وأترابه ، ويضرب بسهمه ، فى كل ما كانوا يضربون فيه ، من ميادين اللهو ، والعبث ، فكان يستمع — مثلا — إلى القيان ، وربما شرب المدام .

وهذا الظن ، وذاك التخمين ، ليسا خلواً من الشاهد ، ولا يفتقدان — على الإطلاق — الحجة والدليل .

بل أستطيع أن أتخذ من فرط زهده حجة ، ومن صدق شعره فى الغزل برهاناً ، إذ أن المبالغة فى الزهد والتقشف ، إنما تحدث فى الغالب والكثير ، لدى من جربوا اللهو ، وارتكبوا فى صباوتهم ، كثيراً أو قليلا من الآثام .

ولا عجب ، فإن التطرف فى الزهد ، إنما ينشأ من فرط الندم ، وشدة الألم ، لما كان قد فعله الإنسان فى حياته السابقة — وبخاصة أيام الشباب — من أمور تعد فى نظر الدين ذنوباً ، وسيئات .

هذا على أن كثرة ذكر الخمر فى الشعر ، ولو على سبيل الرمز ، ينم — ولو من بعض الوجوه — عن شوق الشاعر إليها .

كما أن كثرة الغزل والتشبيب فى شعر المتصوف ، تدل — وإن فسرت بمعان باطنية — على أن ذلك الشاعر ، قد عرف فى شبابه وأيام صباه ، الحب البشرى ، وجرّب لواعجه ، وتذوق فيه طعم الوصل ، وعانى الكثير من ألم الهجران .

وإذن فإن لدينا دليلين على احتمال أنه كان أيام الصبا ، ووقت الشباب ، يلهو ويعبث ، كغيره من أبناء الأثرياء ، وأهل اليسار .

الأول : فرط زهده ، وشدة ورعه ، وغلوه فى التقشف والإخشيشان .

والثانى : كثرة ورود لفظ « الحبيب » فى شعره من جهته ، وذكره المدام فى قصائده الطوال ، من جهة أخرى .

الفصل الثالث

دراسته أو عهد التلمذة

بعد أن تحدثت عن سلوك ابن الكيزانى وأخلاقه ، فى شرخ شبابه ، وعهد صباه ، أنتقل إلى الكلام عن درسه واستظهاره ، أو طلبه العلم — على حد تعبير المتقدمين — فأقول على سبيل الظن والتخمين ، لا على سبيل الجزم والتقرير :

إنه تلقى فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، النحو والصرف والبلاغة وعلم الكلام والفقه وأصول الفقه والمنطق وعلوم الحديث . يدل على ذلك ، قول العماد الأصفهانى[1] :

« عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهود له بأسنة القبول ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول . وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ، ومعرفة بالقديم مكون الحديث » .

فمن عبارة الأصفهانى هذه — على قصرها — ، نستدل على صحة كل ما قلناه ، إذ أن المقصود بكلمة الأصول ، هو التوحيد أو علم الكلام ، والمقصود بالفروع ، هو الفقه وأصول الفقه . وأما كلمة المعقول ، التى أوردها « العماد » ، فإنها تعنى دون شك ، المعارف الفلسفية ، والعلوم العقلية ، وذلك حسب ما اصطلح عليه الأقدمون . إذ أن علماء الإسلام السابقين ، كانوا يقسمون المعارف الإنسانية ، إلى أقسام ثلاثة هى : العلوم اللغوية ، والشرعية ، والعقلية .

أما الأولى ، فإنها تنتظم علم النحو والصرف وفقه اللغة وعلوم البلاغة .

وأما الثانية ، فإنها تشتمل على الفقه وأصول الفقه وعلوم الحديث ، التى هى عبارة عن الرواية ، والدراية ، ومصطلح الحديث ، والجرح والتعديل ، ومعرفة أحوال الرجال .

---

(١) خريدة القصر جزء ٢ ص ١٨ .

وأما الثالثة ، فقد كان يقصد بها فى تلك العصور ، المنطق والمقولات ، وعلم الكلام ، وكل الأفكار الفلسفية .

ومهما يكن من أمر ، فإن الذى لا شك فيه ، هو أن ابن الكيزانى ، كان قد بدأ حياته الدراسية — كغيره من أبناء عصره — بتعلم القرآن وحفظه ، ثم جعل يدرس الفقه ، ويروى الحديث ، مع استظهار النحو والبلاغة ، وغير ذلك من علوم اللغة .

ثم أخذ فى المرحلة الثالثة ، يتفهم مسائل التوحيد ، ومباحث الأصول ، وقواعد المنطق ، إلى غير ذلك مما كان يدخل آنذاك ، فى دائرة ما اصطلحوا على تسميته بالمعقول .

وأغلب الظن أن ابن الكيزانى ارتحل من مصر إلى بلاد الشام والموصل ومكة والمدينة وبغداد ، من أجل أخذ العلم ورواية الحديث ، شأنه فى ذلك شأن طلاب العلم فى شتى الأقطار ، وكل الأمصار .

ولست أقول هذا ظنًّا ، أو على سبيل التخمين ، أو ادعاء لأمر يعوزه البرهان ، ويفتقر إلى الدليل . وإنما قلت ما قلت ، مستنداً إلى ما ذكره تاج الدين السبكى ، فى ترجمته له ، أثناء حديثه عن شيوخه ومريديه ، وإليك نص ما قال[1] :

« سمع من أبى الحسن على بن الحسين بن عمر الموصلى ، وأبى على الحسن ابن محمد بن حسن الجيلى ، روى عنه جماعات ولابن المفضل منه إجازة » .

فعبارة السبكى هذه تعطى — فى صراحة ووضوح — أن ابن الكيزانى ارتحل فى طلب العلم وسماع الحديث ، وأنه اشتغل بعد ذلك بالتدريس .

---

(١) عبد الوهاب السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — طبع القاهرة سنة جـ ٤ ص ٦٥ .

الفصل الرابع

عقيدته ومذهبه

بعد أن تحدثت عن دراسة ابن الكيزانى ، وأخذه العلم وسماعه الحديث ، أتناول بالشرح والتبيان عقيدته ومذهبه ، فأقول :

أجمع الذين ترجموا لابن الكيزانى على أنه كان شافعى المذهب ، وذلك يعنى دون شك أنه كان على مذهب أهل السنة والجماعة .

إذ أن المذاهب الأخرى — كالباطنية والإمامية والزيدية ، وحتى المعتزلة ، لم يكن أتباعها يقلدون فى مذاهبهم الفقهية — وهى التى يناط بها تبيان الأحكام الشرعية ، المتعلقة بالعبادات والمعاملات — أحداً من أئمة الفقه ، الذين هم سلمت عقائدهم من كل ما من شأنه أن يخالف نصوص الكتاب والسنة ، ومنطق الإسلام واتجاهه العام ، وذلك كالشافعى ومالك وأحمد بن حنبل ، ولكن هذا الرأى ، على ما به من الصدق والصحة ، يقتضينا أن ندقق البحث ، وننعم النظر ، فى أقوال المؤرخين ، وأصحاب التراجم ، وما أصدروه على ابن الكيزانى فى هذه القضية من أحكام ، كى لا يكون رأينا فيه مجافياً للحق ، مجانباً للصواب .

فلذلك آثرت أن أورد هنا ، آراء أصحاب التراجم والمؤرخين فيه ، من حيث النحلة والعقيدة ، قبل أن أصدر عليه الحكم النهائى من هذه الوجهة ، فأقول :

ذكر ابن الزيات فى كتابه « الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة » أثناء ترجمته لوثاب بن الميزانى ما نصه[1] :

« مات وثاب ولم يكلم أبا عبد الله بن الكيزانى ، حين ناظره فى ترك التأويل ، فلما احتضر وثاب ، أتاه ابن الكيزانى ، فقيل له إن الشيخ بالباب ، فقال : قولوا له : هل أنت موافقه على التأويل ؟ قال : لا ! فرجع ابن الكيزانى ولم يدخل إليه » .

---

(١) محمد بن الزيات — الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة — طبع القاهرة سنة ١٠٧ م ص ٣٠٣

فهذا النص — كما ترى — يدل على أن ابن الكيزانى — كان يقول بفكرة التشبيه — وهى عقيدة اعتنقها جماعة من المسلمين — وفحواها أن الله سبحانه وتعالى يتصف بصفات تشبه صفات المخلوقين ، وذلك أخذاً من مثل قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » . وقوله عز وجل كذلك : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

أما العماد الأصفهانى ، فإنه ذكر فى ترجمته لابن الكيزانى ، أنه كان يقول بقدم أفعال العباد وبالتشبيه ، مع معرفته لأصول أهل السنة وفروعهم خاصة ، وعلوم أهل الظاهر بوجه عام ، إذ قال ما نصه[1] :

« عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهود له بألسنة القبول ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ، ومعرفة بالقديم مكون الحديث ، إلا أنه اعتقد مقالة ضل بها اعتقاده ، وزل فى مزلقها سداده ، وادعى أن أفعال العباد قديمة ، والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة ، أعاذنا الله من ضلة الحكم ، وزلة العلم ، وعلة الفهم ، واعتقد أن التنزيه فى التشبيه ، عصم الله من ذلك كل أديب أريب ، ونبيل نبيه » إلى أن قال :

« وتوفى بمصر سنة ٥٦٠ هـ — وهو شيخ ذو قبول ، وكلام معسول وشعر خال من التصنع مغسول ، ودفن عند قبر إمامنا الشافعى رضى الله عنه . والكيزانية بمصر فرقة منسوبة إليه ، ويدعون قدم أفعال العباد ، وهم أشباه الكرامية بخراسان » .

فمن قول العماد هذا ، نستطيع أن نصف محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى : بأنه جمع بين الحقيقة والشريعة ، أو علم الظاهر والباطن ، وبأنه كان متكلماً على شىء من التفلسف ، إذ زعم على حد قول العماد : « أن أفعال العباد قديمة وقال بالتشبيه » .

أما ابن سعيد : فإنه قد خالف إلى حد كبير فى وصفه ابن الكيزانى مقالة العماد . إذ قال : « أخبرنى[2] جماعة من المصريين أنه كان من عباد الفسطاط ،

---

(١) خريدة القصر تحقيق الدكتور شوقى ضيف وأحمد أمين جزء ٢ ص ١٨ .

(٢) ابن سعيد — المغرب — ص ٩٣ .

الملازمين للقرافة وجبل المقطم . . . وكان مذهبه الاعتزال ، وهو من فضلاء المائة السادسة » .

فكلام ابن سعيد هذا ، يفيد أن ابن الكيزانى كان متكلماً على مذهب المعتزلة .

وهذا مخالف تماماً لما نسبه إليه العماد، لأن أهل الاعتزال أكثر الناس محاربة لفكرة التشبيه ، والقول بقدم أفعال العباد . . .

أما ابن خلكان[1] فقد قال عنه ، إنه : «كان زاهداً ورعاً ، وبمصر طائفة ينسبون إليه ، ويعتقدون مقالته » .

وكلام ابن خلكان هذا ، مشعر أيضاً بما صرح به فى حقه العماد ، أعنى أن ابن خلكان يرى فى ابن الكيزانى ، رأى العماد الأصفهانى ، من حيث إنه مخالف فى بعض أصول الاعتقاد، مذهب أهل السنة والجماعة . وسواء أصح عنه القول ، بقدم أفعال العباد، والتشبيه فى ذات الله وصفاته ، أم لم يصح ، بأن كان ذلك منسوباً إليه ميناً وبهتاناً، وأنه فى الحقيقة وواقع الأمر منه براء — وهذا ما أميل إليه وأرجحه — سواء أكان هذا أم ذاك ، فإن الذى لا شك فيه ، هو أن ابن الكيزانى كان مناهضاً للدعوة الشيعية، مناصراً لأهل السنة والجماعة ، الأمر الذى يجعلنا نعده أحد دعاة مذهب أهل السنة فى مصر. ولا غرو، فقد كان ابن الكيزانى شافعى المذهب ، حذق أصول أهل السنة ، وبلغ فى تقدير الفقهاء ، مرتبة الاجتهاد المذهبى ، أعنى أنه كان مجتهداً فى إطار المذهب الشافعى ، ولم يك مجتهداً بالمعنى العام ، بحيث يصبح فى عداد الأئمة وأصحاب المذاهب، الذين يكون لهم أتباع ومقلدون ، كالشافعى ومالك وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل .

ومما يؤيدنا فيما ذهبنا إليه، من اعتبارنا إياه أحد أعلام أهل السنة والجماعة البارزين فى مصر — أثناء القرن السادس الهجرى — كونه أخذ الحديث عن شيوخ أهل السنة ، فقد ذكر السبكى[2]، فى طبقاته أن ابن الكيزانى سمع عن

---

(١) ابن خلكان — وفيات الأعيان — ج ٢ ص ١٨ .

(٢) عبد الوهاب السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — طبع القاهرة ج ٤ ص ٦٥

أبي الحسن على بن الحسين بن عمر الموصلى ، وأبى على الحسن بن محمد الجيلى ، وروى عنه خلق .

على أن شعر ابن الكيزانى على كثرته لم يرد فيه أى معنى يخالف ما تعارف عليه أهل السنة ، بل إنه متفق فى روحه ومغزاه مع مذهبهم .

ومصداق هذا فى شعره قوله[(١)] :

داوم على ما أنت فيـــه فإنمـــا الدنيـــا عـــبر
عـــودت نفسى الصـــبر والأجر الجزيل لمن صبر

فابن الكيزانى فى هذه المقطوعة ، راض بالقدر والقضاء ، صابر على المحنة والبلاء ، وذلك ابتغاء مرضاة الله، والظفر منه بجزيل الثواب ، وتلك لعمرى أحوال نفس مؤمنة ، قد صح اعتقادها ، وسلم إيمانها من الزيغ والضلال فهو – أعنى ابن الكيزانى – متمثل فى إيمانه ، قول النبى عليه السلام ، فى جوابه عن سؤال جبريل إياه عن الإيمان، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ، خيره وشره من الله تعالى » . وهذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة، وعليه فمحمد بن ابراهيم بن ثابت الكيزانى فى رأينا ، عالم من علماء أهل السنة ، انتهى به الأمر إلى التصوف، فهو إذن من أولئك الصوفية ، الذين جاء تصوفهم موافقاً لما كانوا عليه من مذهب أو اعتقاد قبل التصوف ، على ما فصلناه فى غير هذا المكان .

---

(١) عماد الدين الأصفهانى – خريدة القصر وجريدة العصر – طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ ج ٢ ص ١٩ .

الفصل الخامس

زهده وتصوفه

بعد أن تناولت بالشرح والتبيان ، معتقد ابن الكيزانى ونحلته ، أبسط القول فى زهده وتصوفه ، فأقول :

قد وصفه المؤرخون وأهل الأدب ، ورجال الدين من الفقهاء والمتصوفة ، ممن ألفوا فى التراجم والطبقات : بأنه عابد زاهد ، أكثر من اعتزال الناس والانقطاع إلى الله ، وغلب عليه التصوف ، وأنه من فضلاء القرن السادس الهجرى .

وخير شىء يصور لنا زهد ابن الكيزانى فى الدنيا ، وعزوفه عنها ، ما ذكره العلامة السخاوى ، فى ترجمته له ، إذ قال ما نصه[1] :

« وكان كثير الإيثار ، وكان له معمل يرسم القزازة ، ويأكل من كسبه ، ويتصدق بالباقى ، وكان يأتيه الطالب ليقرأ عليه ، فيجده جوعان فيطعمه ، وعريان فيكسوه ، ويعطيه العمامة ، حتى يجد فى نعله شيئاً مقطوعاً فيخرزه بيده .

وجاء إليه ملك مصر ، ومعه رسول الخليفة يوماً ليزوره ، فدخلا عليه ، وهو يدور على الدولاب بيده ، ففرش لهما برشاً من خوص ، فقعدا عليه ، وسألاه الدعاء ، فدعا لهما ، فأخرج له الملك ألف دينار ، فلم يقبلها ، فقال له الملك : إن لم تأخذها لنفسك ، فتصدق بها على أصحابك وجيرانك ، فقال : ما هم محتاجون إلى ذلك ، فإنى فى كل يوم أعمل بثلاثة دراهم ونصف ، فآكل نصف درهم ، وأتصدق على جيرانى وأصحابى بالفاضل ، فخذها وانصرف » .

فمن هذا النص ، نستطيع أن نصف أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى ، بأنه زاهد ورع يقنع من الدنيا بالقليل ، ويأبى أن يكون له منها الكثير .

---

(١) « نور الدين » على بن أحمد السخاوى — تحفة الأحباب وبغية الطلاب — طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ م — ص ٣٨٥ .

وفوق ذلك ، فإنه شديد التواضع ، شديد العطف ، رحيم بالطلاب ، كثير العناية بالمريدين .

وهناك معنى آخر ، يدل عليه ذلك النص ، غير الزهد والورع والتقشف والإيثار ، أعنى بغضه للفاطميين ، وازدراءه عقائدهم ، واستخفافه بسلطانهم . إذ أنه لم يقم وزناً للأمير الفاطمى ، ولا لذلك السلطان أو الملك — على حد تعبير السخاوى .

ولو أنه كان يجل الفاطميين ويبجلهم من ناحية ، ويعير الدنيا أى اهتمام من ناحية أخرى ، لهش للأمير ، وبش للملك ، وأخذ ما عرضاه عليه من المال . لكنه كما رأيت ، قد فرش للأمير والملك برشاً من خوص . وهذا إن دل على تقشف ابن الكيزانى ، فإنه لا شك ، أدل على ازدرائه للفاطميين ، ومقته مذهبهم . ثم إنه قد رفض المال ، وهو إن دل على زهده فى الدنيا ، فهو أيضاً أدل على كرهه الفاطميين .

وهناك روايات كثيرة ، وأخبار عديدة ، نقلتها كتب الثقات ، من المؤرخين وأصحاب التراجم والطبقات ، وكلها تنم عن زهد ابن الكيزانى ، وورعه ، وحسن تدينه ، وتقواه ، فمن ذلك ما ذكره فى ترجمته له ، كل من السبكى ، وابن خلكان ، وابن سعيد المغربى .

أما السبكى ، فقد قال بعد أن ذكر اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ، ما نصه[1] :

« المشهور فى الديار المصرية بالعلم والزهد » .

وأما ابن خلكان ، فقد قال[2] :

كان زاهداً ورعاً » .

وأما ابن سعيد المغربى ، فقد قال بعد أن ذكر اسم ابن الكيزانى ونسبه ، مانصه[3] :

---

(١) انظر عبد الوهاب السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — طبع القاهرة ، جـ ٤ ص ٦٥

(٢) انظر ابن سعيد — المغرب فى حلى المغرب — طبع القاهرة سنة ١٩٥٣ (القسم الخاص بمصر) جـ ١ ص ٢٦١ .

(٣) ابن خلكان — وفيات الأعيان — طبع القاهرة سنة ١٩٤٥ ، جـ ٤ ص ٨٦ .

« أخبرنى جماعة من المصريين ، أنه كان من عباد الفسطاط ، الملازمين لجبل المقطم » .

فمن هذه الأقوال ، وتلك الأخبار ، نستطيع أن نصف ابن الكيزانى — على ما سبق أن قلناه — بفرط الزهد ، وشدة الورع ، وكثرة التبتل والتنسك ، وأنه كان يصطنع المجاهدة والمكابدة ، ويكثر من الخلوات فى الفلوات . الأمر الذى يحملنا على القول ، بأنه كان صاحب طريقة ، تقوم فى جانبها العملى ، على كثرة الصيام والقيام ، وترك الشهوات ، والبعد عن الملذات ، والانقطاع إلى الله . ولعله كان يلزم أتباعه باتخاذ الخلوات وعمل الأربعينيات . وإليك من شعره، ما يمكن اعتباره قاعدة سلوكية ، يلتزم بها المريدون[1] :

قف على البـاب طالبـا ودع الدمـع ساكبا
وتوسـل بـه إليـه مـن الذنب تـائبـا
تلق من حسن فضـله عنـد ذاك العجـائبـا
ثم خف منـه أن يـرا ك عـلى الذنب راكبـا
فهو يجـزى عـلى اليسير ويعطى الرغـائبـا
زينـة العبـد بالتـقى فاجعـل الصـدق صاحبا

فابن الكيزانى فى هذه الأبيات ، يرسم منهجه العملى ، فى طريقته التى كان يلزم بها أتباعه ومريديه .

ونحن نستطيع أن نستخلص من تلك الأبيات ، القواعد السلوكية التالية:

أولا : الانصراف عن الدنيا وما فيها ومن فيها ،والاتجاه بالكلية إلى الله عز وجل. وهذا أخذاً من قوله فى البيت الأول :

قف على البـاب طالبا ودع الدمـع سـاكبا

فهو كما ترى ، يأمر أتباعه فى هذه الشطرة ، بالاتجاه إلى الله بالقلب والقالب ، والروح والجسد ، فى تذلل وخشوع .

---

(١) شمس الدين محمد بن الزيات — الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة — طبع القاهرة سنة١٩٠٧م ص ٣٠٣ .

ثانياً : أن ينقطع المريد عن كل ، ما عدا الله ، إلى الله ، فلا يفكر فى شيء سواه ، ولا يرجو أى نفع إلا من الله ، وبعبارة أخرى أقول ، إن ابن الكيزانى ، يطلب من مريديه ، أن يزدروا كل شيء إلا الله ، وأن لا يقدسوا أحداً إلا الله ، وألا يجعلوا لمخلوق ، أيًّا كانت مكانته حتى ولو كان شيخ الطريقة نفسه ، أى دخل أو تأثير فى قرب المريد من ربه ، أو اتصال الصوفى بمولاه .

وقد استقيت هذه القاعدة السلوكية ، من قول ابن الكيزانى فى البيت الثانى من الأبيات المذكورة ، وهو قوله :

وتوسـل به إليـه مـن الذنب تائبـا

ثالثاً : أن يمتلئ قلب المريد بخوف الله وخشيته ، فلا يقارف إثماً ، ولا يجترح سيئة ، ولا يرتكب خطيئة ، يدل على هذا قوله فى البيت الرابع :

ثم خف منـه أن يرا ك على الذنب راكبـا

رابعاً : أن يطهر المريدون أو السالكون قلوبهم من دنس الدنيا ورغائب الحياة ، وألا يشغلوا نفوسهم بالتفكير فى شئون العاجلة ، بل ينصرفوا إلى الاستعداد للحياة الآجلة ، وبعبارة أوضح أقول :

يصفون قلوبهم من شوائب الحياة المادية ، وينصرفون بالكلية إلى الحياة الأخروية ، وذلك بالتقى والورع ، والصدق فى العبادة ، والصبر على البلاء ، والرضاء بالقضاء . يدل على ذلك كله قول ابن الكيزانى فى البيت الأخير من المقطوعة التى أسلفناها :

زينة العبد بالتقى فاجعل الصدق صاحبا

وقوله[1] :

داوم على ما أنت فيه فإنما الدنيا عبر
عودت نفسى الصبر والأجر الجزيل لمن صبر

هذا هو مجمل القول فى الجانب العملى ، أو السلوكى ، من طريقة ابن الكيزانى ، أما الجانب النظرى ، أو الاتجاه الروحى ، فإنه يقوم على الحب الإلهى .

---

(١) العماد الأصفهانى — خريدة القصر وجريدة العصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ جـ ٢ ص ١٩

وقد نظرت فى شعر ابن الكيزانى ، وتأملت كل ما وقع إلى من قصائده ومقطعاته ، فخرجت منها جميعاً بهذه الحقيقة وهى :

أن ابن الكيزانى قد تدرج فى حبه ، ومر فيه بعدة أطوار ، وهى : أولا : حب يشبه الحب البشرى الذى يقع من جانب واحد ، وهذا أخذاً من قوله[١] :

إذا نفحت رياح الغور يوماً فإن الدمع ينجدنى ويغرى
تذكرنى الذى قد غاب عنى فيلقانى وألقاه بذكر
نأى عنى وقلبى مثل برق وأجفانى سحاب ذات قطر
والهنى عليه ثم لهنى نأى بنواه يوم البين صبرى
أبيت معللا روحى بروح النـ ـسيم من أرضه أيان يسرى
ولا والله ما ذاقت جـفونى مناماً لا ولا أخليت ذكرى
ووا أسفى على أن ذبت شوقاً وأحسبه بذلك ليس يدرى

فابن الكيزانى فى حبه هذا ، كما هو واضح من تلك الأبيات ، دنف معنى ، قد برح به الهوى ، ونال منه الجوى ، وجافى جفنيه الكرى ، وجانب جنبه الرقاد .

والسر فى ذلك كله شعوره بغياب حبيبه عنه ، (ومعناه هنا عدم التجلى) وإحساسه بأنه لا يدرى بما به من فرط الوجد ، وشدة الهيمان .

ثانياً : حب مع الشعور بعطف الحبيب ، يدل على ذلك قوله[٢] :

يا من يتيه على الزمان بحسنه اعطف على الصب المشوق التائه
أضحى يخاف على احتراق فؤاده أسفاً لأنك منه فى سوداته

فهذا كلام كما ترى يعطى أن ابن الكيزانى أخذ يستشعر تجلى الله — سبحانه — على قلبه ، ولكنه تجل محدود ، وفى فترات قصيرة ، لا تكاد تجاوز اللحظات .

ثالثاً : حب يخامره الأمل والرجاء فى الوصول واللقاء ، يدل على ذلك قوله[٣] :

وإذا لاق بالمحب غرام فكذا الوصل بالحبيب يليق

---

(١) ابن سعيد — المغرب فى حلى المغرب — طبع القاهرة سنة ١٩٥٣ جـ ١ (القسم الخاص بمصر) ص ٢٦١ .

(٢) و (٣) الصفدى — الوافى بالوفيات — طبع استانبول سنة ١٩٣١ م جـ ١ ص ٣٤٧ .

فهذا البيت يفيد فى صراحة، أن ابن الكيزانى أخذ يتلقى من ربه كثيراً من الفيوضات ، وينفعل قلبه ببعض النفحات .

أما الطور الرابع والأخير من أطوار حب ابن الكيزانى ، فهو تمام الوصال ، إذ يقول(١) :

اصرفوا عنى طبيبى ودعونى وحبيبى
عللوا قلبى بذكراه ... فقد زاد لهيبى
طاب هتكى فى هواه بين واش ورقيب

فابن الكيزانى فى هذه الأبيات ، قد تذوق طعم الوصال ، واستشعر — من حبيبه — جميل العطف وحسن النوال ، ولم يعد ذلك العاشق الولهان ، الذى برح به الوجد ، وأشجاه الغرام . على أنه لم يزل دنفاً معنى ، تضطرم فى أحشائه نار الصبابة ، ويحتدم فى فؤاده لهب الهيام ، ومع ذلك فإنه يشعر بالسعادة والسرور ، أو تمتلئ روحه بالبهجة والحبور ، وإن بدا جسده ناحلا ، ووجهه شاحباً ، لفرط الجوى ، ولعج الهوى ، وطول السقام، وبرغم ذلك كله ، فإنه يأبى أن يقترب منه الطبيب ، لأنه بحبه جد سعيد ، فلا يطلب الدواء إلا من الداء ، ولا يرجو الشفاء إلا من الصد والجفاء ، فما دام حبيبه يواسيه ، ومن خمر الهوى يسقيه ، فإنه راض بكل ما هو فيه ، غير مكترث بكلام الوشاة الشانئين ، ولا مبال بأعين الرقباء العاذلين .

وهذا كله من باب التشبيه ، وعلى سبيل التمثيل ،أما حقيقة حب ابن الكيزانى ، فإنها شىء آخر لا يمكن وصفه أو شرحه ، إذ هو عبارة عن حالة القرب أو مقام المعرفة ، أو مرتبة التحقق أو الاتحاد . ولا عجب فإن الأبيات المذكورة تعطى فى صراحة ، أن ابن الكيزانى قد فنى عن العالم الحسى ، إذ لم يعد يشعر به ولا يعير قيمه أى اعتبار . وهذا هو الحال أو المقام الذى يعبر عنه براهمة الهنود بكلمة « نرفانا» ،أما متصوفة الإسلام فإنهم يطلقون عليه تارة اسم « مقام الفناء » ، وتارة

---

(١) الشيخ الإمام أبو محمد يوسف سبط الشيخ أبى الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى – مرآة الزمان – طبع شيكاغوسنة ١٩٠٧ جـ ٨ ص ١٥٧ .

أخرى اسم « مقام الشهود » ، أو حالة التحقق ، وهو ما يعبر عنه الفلاسفة والمتكلمون بكلمة « الاتحاد » .

ومهما يكن من أمر ، فإن ابن الكيزانى قد عرف فى عصره بأنه ذو طريقة صوفية ، وكان له عدد كبير من الأتباع والمريدين ، وقد زعم الذين ترجموا له أو أرخوه ، أنه يعتقد فى التجسيم ، فقد قال السبكى فى ترجمته له[1] :

بعد أن ذكر اسمه ونسبه وكنيته ولقبه — : « المشهور فى الديار المصرية بالعلم والزهد والتجسيم » .

وأغلب الظن ، أن ابن الكيزانى لم يقل فى التجسيم ، ولا خالف فى شىء ذى بال عقيدة أهل السنة والجماعة ، على ما سبق أن فصلناه . وإنما خيل إلى أوائك الباحثين ، أو دخل فى وهمهم ذلك المعنى ، بسبب كثرة ورود كلمة « الحبيب » وعبارات الغزل وألفاظ التشبيب فى شعره ، مقصوداً بها ذات الله — عز وجل — ولما كان علماء الظاهر وأهل الشريعة ، لا يبيحون نعت الله بتلك الصفات ولا يجيزون لأحد أن يخاطب الله — عز وجل — بشىء من تلك العبارات ، ولا أن يكنى عن ذاته — جل وعلا — بمثل هاتيك الكلمات التى زخر بها شعر ابن الكيزانى . فإنهم لذلك — فيما أظن — رموه بالتجسيم ، وقالوا إنه يقول بفكرة التشبيه ، لأن عبارات الغزل وألفاظ التشبيب وكلمات « الحب » و « الحبيب » الواردة فى شعر ابن الكيزانى أخلق بالخلق ، وألصق بالمخلوقين .

وجملة القول فى طريقة ابن الكيزانى أنها كغيرها من طرق التصوف ، تتألف من منهجين اثنين ، الأول عملى ، والآخر روحى أو نظرى .

أما الأول : فيقوم على المجاهدة والمكابدة ، وتقويم السلوك وتهذيب الأخلاق .

والثانى : يتألف من تعاليم روحية ، تنتظم المنازل والمقامات الروحية التى يمر بها السالكون وهم فى طريقهم إلى الله ، وملاك ذلك كله وضابطه عند ابن الكيزانى هو صدق المريدين وإخلاصهم فى حبهم لله .

فكل من حسنت سيرته ، وصفت سريرته ، وانشغل قلبه بحب مولاه ، ولم ينبض بشىء سواه ، يكون — بإذن الله — أحد الواصلين .

---

(١) السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — طبع القاهرة ، ج ٤ ص ٦٥ .

الفصل السادس

مكانته لدى الشعب وعند الفاطميين

تجمع النصوص التى بين أيدينا على أن ابن الكيزانى كان يتبوأ مكانة سامية لدى الشعب ويحتل منزلة رفيعة عند الفاطميين .

فهذا العلامة السخاوى — فى ترجمته له — يقول ما نصه[1] :

« كان عظيم الشأن، وله الديوان المشهور ، وله كتاب "الرقائق" ، وله الكتاب المعروف "بمليك الخطب" .

وقد منع فى زمانه القراء من القراءة فى الأسواق ، ومنع معلمى المكاتب من مسح الألواح إلا فى الآنية الجديدة ، وأن يجمع ذلك ويطرح فى البحر . وكان كثير الإيثار » .

فهذا كما ترى ، أدل شىء على عظم المكانة التى كان يحتلها ابن الكيزانى بين أبناء المجتمع المصرى من جهة ، وفى نفوس الحكام الفاطميين من جهة أخرى .

وآية ذلك كونه حظر على الذين كانوا يتكسبون بالقرآن أن يقرءوا فى الأسواق ، كما حظر كذلك على معلمى الصبية وأصحاب المكاتب ، أن يمسحوا من الألواح الآيات القرآنية ، إلا فى آنية جديدة ، وألزمهم أن يجمعوا تلك المحاية ويلقوها فى البحر ، وذلك مبالغة منه فى تبجيل القرآن الكريم ، وتعظيم آى الذكر الحكيم .

ولولا أن ابن الكيزانى ، كان ذا شأن عظيم ومكانة مرموقة ، وذا منصب رفيع فى الدولة ، لما استطاع — بحال من الأحوال — أن يتحكم فى طائفة القراء ، وجماعة المعلمين . إذ أن منع الناس من مزاولة أى عمل من الأعمال ، لا يتأتى من فرد عادى ، أو غير ذى سلطان ، فقد جرت العادة أن تصدر مثل هذه الأحكام عن قاضى قضاة الديار المصرية ، أو الوالى أو الوزير . الأمر الذى يحملنا على القول ، بأن

---

(١) السخاوى — الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة — طبع القاهرة سنة ١٩٠٧ ص ٣٠٣ .

ابن الكيزانى كان – ولو على سبيل الفرض والتخمين – يشغل فى وقت من الأوقات منصب القضاء .

هذا وقد سبق أن ذكرنا فى غير هذا المكان ، نصًّا فحواه ، أن الملك ذهب إلى ابن الكيزانى ، ومعه أمير القاهرة ، فسألاه الدعاء ، وقدما له مبلغ ألف دينار .

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن الفاطميين كانوا يترضون ابن الكيزانى ويتقربون إليه ، لا لصلاحه وتقواه ، ولا رغبة فى أن يسأل الله لهم ، ولكن خوفاً من أن يستغل شعبيته وتقدير الناس له ، فيدعوهم إلى الانتقاض على الخليفة الفاطمى ، وخلع طاعته .

ولا غرو فإن ابن الكيزانى كان على مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو أمر يجعل الفاطميين يخشونه ويحذرون منه . إذ من الجائز والمعقول ، أن يتصل بابن الكيزانى بعض أنصار العباسيين وفى ذلك ما فيه من الخطر الجسيم ، على كيان دولة الفاطميين ، هذا على أن أتباع ابن الكيزانى ومريديه ، كانوا – فيما أظن – كثيرين منتشرين فى أنحاء عدة بالوجهين القبلى والبحرى ، وأنهم كانوا لكثرتهم يجاهرون بآرائهم السنية ، التى تخالف فى جوهرها التعاليم الفاطمية ، ولست أقول هذا ادعاء ولا رجماً بالغيب ، وإنما هو قول يؤيده الدليل ، من أقوال المؤرخين السابقين ، وبخاصة من كانوا يعيشون فى زمن غير بعيد من عصر الفاطميين ، كسبط بن الجوزى ، وابن خلكان ، وهما ثقتان يلتزمان فيما ينقلانه من الأخبار الدقة والأمانة ، وإليك من أقوالهما ما يدل على أن طائفة ابن الكيزانى ، كانت ذات خطر كبير ، وشأن عظيم .

قال سبط بن الجوزى ، بعد أن ذكر اسم ابن الكيزانى ، ونسبه ، ما نصه[1] :

« رجل مشهور فاضل ، وله أصحاب بمصر ، كان يقول إن أفعال العباد قديمة ، وبين أصحابه وبين جملة من المصريين خلاف » .

فهذا لعمرى دليل على شوكة طائفة ابن الكيزانى وقوة شكيمتهم . وإلا لما استطاعوا أن يجاهروا بمخالفة مذهب الحاكمين ، وأصحاب السلطان فى البلاد .

---

(١) ابن الجوزى – مرآة الزمان – طبع شيكاغو سنة ١٩٠٧ م جـ ٨ ص ١٥٧ .

أما ابن خلكان ، فقد قال فى هذا الصدد ، ما نصه[1] :

« وبمصر طائفة ينسبون إليه ، ويعتقدون مقالته » .

ووجهة دلالة هذا القول ، على كثرة أتباع ابن الكيزانى ، كون ابن خلكان قد عبر عنهم بكلمة طائفة . والطائفة فى اللغة إنما تقال على الكثرة ، كما أن المتكلمين وأصحاب التصانيف ، فى الفرق والملل والنحل ، قد أطلقوا لفظ « طائفة » على الجماعة ذات النحلة الخاصة ، أو المذهب المعين .

وقصارى القول فى هذا المقام هو : أن ابن الكيزانى كان ذا شأن عظيم لدى جمهرة المصريين ، سنيين وفاطميين ، حاكمين ومحكومين ، وأنه كان ذا طريقة كثيرة الأتباع والمريدين .

ومن ثم كان الخلفاء والأمراء الفاطميون ، يبجلون ابن الكيزانى ، ويكرمونه ، ويعيرونه هو وأتباعه أكبر عناية ، وأعظم تقدير .

---

(١) ابن خلكان – وفيات الأعيان – طبع القاهرة سنة ١٩٤٨ جـ ٤ ص ١٨٦ .

الفصل السابع

وعظه وخطبه

لقد أطبق المؤرخون ورواة الأخبار ، وأصحاب التراجم والطبقات ، وبخاصة المعنيون بأحوال المتصوفة ، والفقهاء من رجال الدين ، على أن ابن الكيزانى كان واعظاً حاذقاً ، ذا تأثير كبير على نفوس الجماهير . مع بلاغة فى القول ، وفصاحة فى الكلام ، وقدرة فائقة فى الخطابة ، وإباقة فى الحديث . وأن المصريين كانوا يستعذبون قوله ، ويستملحون كلامه ، ويتأثرون إلى حد كبير ببالغ حكمه ، وبليغ خطبه . ولا عجب ، فهذا العماد الأصفهانى ، وهو المعروف بالصدق فى القول ، والتحرى فى الرواية ، والدقة فى الحكم والتقدير ، يصف ابن الكيزانى ، فيقول[1] :

« فقيه واعظ ، مذكر ، حسن العبارة ، مليح الإشارة ، لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة ، مصرى الدار ، عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهود له بألسنة القبول ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكون الحديث » .

فهذا — كما ترى — كلام ملىء بالنعوت ، زاخر بالإطراء ، إذ يصف ابن الكيزانى ببلاغة القول ، وروعة الكلام ، وبراعة الوعظ وقوة التعبير ، مع غزارة العلم وسعة المعرفة ، وكمال الدراية ، وحسن الرواية .

هذا وقد ذكره سبط بن الجوزى فى مرآته ، فقال[2] :

« الواعظ المصرى ، رجل مشهور فاضل » .

---

(١) العماد الأصفهانى — خريدة القصر وجريدة العصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ م — ج ٢ ص ١٨ .

(٢) ابن الجوزى — مرآة الزمان — طبع شيكاغو سنة ١٩٠٧ م ج ٨ ص ١٥٧ .

وقد وصف ابن الكيزانى بأنه واعظ مصر كذلك ، أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، إذ قال فى ترجمته له ، ما نصه[١] :

« الواعظ المصرى » .

وقد ذكر له كل من ابن الزيات ، والسخاوى ، كتابين فى الوعظ والإرشاد ، اسم الأول « الرقائق » ، وعنوان الثانى « مليك الخطب » .

هذا على أن ديوان ابن الكيزانى ملىء بالمواعظ والنصائح ، زاخر بالحكم والإرشاد ، يدل على ذلك ما وصفه به العماد الأصفهانى ، إذ يقول[٢] :

« وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق ، والقافية القافية آثار الحكم ، والكلمة الكاشفة أسرار الكرم » .

فكلام الأصفهانى هذا ، أصدق شاهد وأقوى دليل ، على أن ديوان ابن الكيزانى يشتمل على مجموعة غير قليلة من القصائد والأشعار ، التى نظمها ابن الكيزانى بقصد النصح والإرشاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والترغيب فى الجنة والترهيب من النار ، وأنه يحض كذلك على فعل الفضائل ، وترك الرذائل ، واجتناب ما حرم الله .

وجملة القول فى ابن الكيزانى من هذه الوجهة ؛ أنه كان يعظ الناس بالفسطاط والقاهرة ، أيام الجمع وفى مختلف المناسبات ، تارة بالخطب النثرية المنمقة ذات الألفاظ الفخمة والكلمات الجزلة ، والمعانى البليغة ، والصور الرائعة ، والتعابير الرائقة ، وتارة أخرى بالقصائد والمقطعات الفياضة بالمشاعر الصادقة ، النابضة بالأحاسيس الدينية ، والعواطف الإنسانية ، المتأججة بحرارة الإيمان ، الوضاءة بنور اليقين .

---

(١) ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة – طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ جـ ٥ ص ٢٧٦ .

(٢) العماد الاصفهانى – خريدة القصر وجريدة العصر – طبع القاهرة سنة ١٩٥٢م جـ ٢ ص١٨

الفصل الثامن

موقفه من الشريعة وعلوم أهل الظاهر

ذكرنا عند حديثنا عن ابن الكيزانى ، أيام الطلب وزمن التلمذة أنه درس فقه الشافعى ، وروى الحديث ، وهنا نقول على سبيل التأكيد والتقرير ، إن ابن الكيزانى لم يكن واحداً من أولئك المتصوفين الذين هم اطرحوا الشريعة ، وأهملوا علم الظاهر ، ولم يعترفوا بغير الحقيقة أو الطريقة ، وقرروا أن ظاهر الكتاب والسنة ، خاص بالعامة والدهماء ، وذوى القلوب المظلمة . أما الخاصة أو الأصفياء من الذين أنار الله قلوبهم ، وكشف عن بصائرهم ، فإنهم قد فقهوا الدين على حقيقته ، وعرفوا معانى القرآن ، وأدركوا مقاصد النبى — عليه السلام — أعنى أنهم عرفوا الباطن ، واهتدوا إلى الحقيقة المثلى .

أقول : لم يكن ابن الكيزانى أحد هؤلاء ، إذ كان يقيم كل وزن واعتبار لظاهر الكتاب والسنة ، ويلتزم فى سلوكه وتصرفاته بقوانين الشريعة .

ولا غرو ، فقد كان ابن الكيزانى معنيًّا كل العناية بالفقه وأصول الفقه ، كثير الاهتمام بعلوم الحديث . وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن ابن الكيزانى ، كان يرى أن العمل بظاهر الكتاب والسنة شرط أساسى لصحة السلوك ، واستقامة الطريق .

ولست أقول هذا دفاعاً عن ابن الكيزانى ، أو تعصباً له ، وإنما هى الحقيقة ، التى أقر بها له الموافق والمخالف . فهذا السبكى ، وهو فقيه شافعى ، يقول فى ترجمته له[1] :

« سمع من أبى الحسن على بن الحسين بن عمر الموصلى ، وأبى على الحسن بن محمد بن حسن الجيلى ، روى عنه جماعات ، ولابن المفضل منه إجازة » .

---

(١) السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — طبع القاهرة ج ٤ ص ٦٥ .

فهذا كما ترى دليل ناصع وبرهان ساطع ، على أن ابن الكيزانى كان شديد الاهتمام بعلوم الظاهر ، شديد التمسك بأحكام الدين .

ولو أنه كان — كسواه من المتصوفة — غير حافل بالظاهر ، ولا متشبث بتعاليم الدين ، لما ارتحل فى طلب الحديث ، ولا كان له طلبة يأخذون عنه ما قد رواه ويكتبون عنه ما قد رآه .

ومجمل القول فى هذا المقام أن يقال : إن ابن الكيزانى كان فقيهاً متصوفاً — قد جمع بين الظاهر والباطن . أو بتعبير آخر أقول : إنه تمثل الحقيقة ، وامتثل الشريعة . فأضحى مرضيًّا عنه لدى الفريقين ، الأمر الذى جعل أصحاب الباطن وأهل الظاهر كليهما يذكرونه فى كتبهم ، ويكثرون فيه المدح والإطراء .

الفصل التاسع

قناعة ابن الكيزانى وعطفه على الفقراء

بناء على ما ذكرناه فى الباب الأول من هذا الكتاب عند كلامنا عن الأحوال الاقتصادية وما كانت عليه أمور العيش إبان عصر ابن الكيزانى نستطيع أن نقول هنا إن الفاقة والعوز كانا يخيمان على سواد الشعب وأكثر أفراد مجتمع ذلك الحين ، وذلك لعدة أسباب : أحدها أن الملوك والسلاطين كانوا فى ذلك الحين إقطاعيين ورأسماليين ، لا يفكرون فى عدالة التوزيع ، ولم يكن ليهمهم أمر الفلاحين ولا شأن الكادحين .

ومن يقرأ كتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » لابن إياس ، يجد فيه صورة واضحة المعالم ، بينة القسمات ، للنظام الاقتصادى الذى كان سائداً فى الديار المصرية ، إبان تلك العصور . إذ يذكر ابن إياس : أن الأراضى كانت تقسم إلى أربعة وعشرين قيراطاً موزعة على السلطان وحاشيته ، والأمراء وقادة الجيش ، وطائفة الجنود ، وحكام الأقاليم . أما الفلاحون والزراع ، فإنهم يفلحون ويكدحون ، ولا يأخذون سوى ما يسد الرمق ، ويقيم الأود .

هذا على أن الفقهاء ورجال الدين ، كانوا يعدون ضمن الطبقات ذات الشأن ، طيلة تلك العصور ، بما فى ذلك المؤرخون وأصحاب التراجم ، والرواة والمحدثون .

ومن ثم وجدنا ابن الكيزانى يتحلى بصفتين رئيسيتين هما القناعة من الدنيا باليسير وشدة العطف على الفقراء والمساكين من خلطائه ومجاوريه ومن طلابه ومريديه ولا غرو فإن كل الذين ترجموا له وأرخوه قد وصفوه ونعتوه فى كل ما ذكروه عنه من عبارات وكلمات ، تعبر فى تقديرهم عن زهده وورعه ، فمن ذلك — على سبيل المثال — قولهم : كان عابداً زاهداً ، قنوعاً من الدنيا باليسير .

وقولهم : إنه كان يأكل من كسب يده ، وكان شديد العطف على الطلاب . فكان يأتيه أحدهم جائعاً فيطعمه ، وعارياً فيكسوه .

وهذه العبارات إن دلت على شيء فإنما تدل على تأصل روح ما نسميه نحن الآن بالاشتراكية . ولعل فيما ذكره السخاوى ، وابن الزيات ، خير شيء يصور لنا قناعته وعطفه على المحتاجين ، إذ قالا ما نصه[1] :

« ويأتيه الطالب ليقرأ عليه ، فيجده جائعاً فيطعمه ، وعرياناً فيكسوه ، ويعطيه العمامة ، حتى إنه إذا وجد فى نعله شيئاً مقطوعاً يخرزه بيده . وجاءه يوماً أمير مصر ، ومعه رسول الخليفة ، فدخلا عليه وهو يدور على الدولاب بيده ، ففرش لهما برشاً من خوص ، فقعدا عليه ، وسألاه الدعاء ، فدعا لهما . فأخرج له الملك ألف دينار ، فردها ، فقال له السلطان : إن لم تأخذها لنفسك فتصدق على أصحابك بها . فقال : وأصحابى لا يحتاجون إليها ، فإنى أعمل على هذا الدولاب فى كل يوم بثلاثة دراهم ونصف ، فآكل من ذلك بنصف ، وأتصدق بثلاثة دراهم على أصحابى وأهلى وجيرانى ، فخذها وانصرف » .

فهذا النص صريح ، فى أن ابن الكيزانى كان يرى أن المال قوام الحياة ، وأنه لذلك ينبغى أن يكون قسمة عادلة بين الناس . فلا يجوز فى مذهب ابن الكيزانى ، أن يجمع المال أفراد ، ويحرم منه آخرون . ثم إنه يرى كذلك ، أن على كل فرد من أفراد المجتمع أن يجد فى طلب الرزق ، وأن يكد ويكدح ، بدليل أن ابن الكيزانى نفسه كان يأكل من كسب يده ، وأنه كان يدير بيده على الدولاب .

هذا على أنه كان — من ناحية أخرى — يعد جمع المال واحتكاره أمراً يتنافى مع تعاليم الإسلام ، إذ يقول الله — سبحانه وتعالى — فى كتابه العزيز :

« إن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

« يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

---

(١) انظر ابن الزيات — الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة — طبع القاهرة سنة ١٩٠٧ م ص ٣٠٣ .

والعلامة السخاوى — تحفة الأحباب وبغية الطلاب — طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ م الطبعة الأولى ص ٣٨٥

والدليل على أن ابن الكيزانى ، قد اتجه هذا الاتجاه ، كونه رفض أخذ الألف دينار — التى عرضها عليه السلطان — فلما قال له : أعطها أصحابك وجيرانك ، رد عليه بقوله :

إنى أعمل على هذا الدولاب فى كل يوم بثلاثة دراهم ونصف ، فآكل منها بنصف درهم ، وأفرق الباقى على أصحابى وجيرانى .

وهذا لعمرى أدل شىء على قناعة ابن الكيزانى ، وزهده ، ومقته الشديد لأرباب رأس المال ، وذوى الثراء الفاحش من ناحية ، ومحاربته التواكل والاعتماد على الصدقات فى العيش ، مهما تعددت العلل ، وتنوعت الأسباب ، من ناحية أخرى .

وقصارى القول فى ابن الكيزانى من الوجهة الاقتصادية ، أنه كان يعد فى زمانه — حسب اصطلاح عصرنا الحاضر — داعية من دعاة عدالة التوزيع ، وزعيما من زعماء الإصلاح الاجتماعى .

الفصل العاشر

أثره فى تطوير الفكر المصرى

من المذهب الباطنى إلى المذهب السنى

لما كان الفاطميون قد عملوا على نشر تعاليم مذهبهم فى مصر وحملوا الناس على اعتناقها والعمل بمقتضاها فى حياتهم الدينية والاجتماعية . كان لابد للمذهب السنى من الانزواء والاندحار ، وبالتالى ضعف معتنقيه وأنصاره فى أرض وادى النيل ، ومن ثم وجدنا التصوف السنى يختفى من مصر ويظهر فى قوة وانتشار فى كل من العراق وخراسان وبلاد الأندلس ، وذلك فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ومن يتتبع تاريخ الأعلام وينعم النظر فى كتب التراجم والطبقات وبخاصة ما كان منها فى تراجم رجال الدين ، يجد أن رجال الفقه والتصوف من أهل السنة قد هجروا مصر واتجهوا إلى المشرق حيث كان يسيطر العباسيون الذين كانوا يضطلعون بنشر المذهب السنى وتأييده ضد المذهب الفاطمى الذى بدأ يغزو بلاد المشرق فى أخريات القرن الثالث الهجرى عن طريق الدعاة ، ثم تمركز فى مصر فى أخريات القرن الرابع الهجرى حيث استطاع الفاطميون أن ينتزعوا هذه البلاد من الخلافة العباسية ، وبعد ذلك بسطوا سلطانهم على ربوع الشام ، وقد دامت دولتهم من الناحية السياسية نحو مائتى عام ، أما من الناحية الفكرية فإن مذهبهم قد دام أكثر من تلك المدة التى عاشتها الدولة الفاطمية فى مصر والشام ، إذ أن مذهب الإسماعيلية الباطنية قد غزا صعيد مصر وبلاد اليمن وأرض حضرموت وأنحاء أخرى فى بلاد فارس وإيران أثناء حكم الفواطم للمغرب الأقصى وذلك قبل أن يمتد سلطانهم إلى المشرق بردح طويل من الزمان. كما أنه — أعنى المذهب الإسماعيلى — قد بقى فى مصر — وبخاصة فى أرض الصعيد — حتى القرن الثامن الهجرى ، أى بعد زوال الحكم الفاطمى بنحو قرنين من الزمان . ولست أريد فى هذا الفصل أن أتتبع نشأة المذهب الفاطمى وتطوره وأبين ازدهاره وتدهوره ، وإنما أردت أن أبين الظروف الدينية والأحوال الفكرية التى سادت الديار المصرية إبان العصر الفاطمى كى

يتسنى لنا أن نتفهم مدى خطورة الدور الذى لعبه ابن الكيزانى فى حياة المصريين من الناحيتين الفكرية والمذهبية ؛ ولا عجب فإن المصريين كانوا قد انصاعوا إلى تعاليم المذهب الإسماعيلى الباطنى وانفعلت بها مشاعرهم واصطبغت بلونها عواطفهم ووجداناتهم وأخذ تفكيرهم يدور فى إطار تلك التعاليم . وقد بلغ من تأثر المصريين بقواعد ذلك المذهب وتعاليمه أن أصبحوا يعتقدون أن الإمام الفاطمى يضر وينفع ، وأنه يرزق من شاء بما شاء ويحرم من شاء إذا شاء . ومصداق ذلك قول ابن هانئ الأندلسى فى مدح المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقـــدار فاحـــكم فأنت الواحد القهار

ومعنى هذا أن المصريين كانوا يخلعون على الخليفة الفاطمى صفات الألوهية ، وقد ظلوا كذلك حتى جاء القرن السادس الهجرى فبدءوا يسيئون الظن فى تلك التعاليم الفاطمية ، وبالتالى يشكون فى صدق نسبة تلك الصفات إلى الإمام حيث عجز عن درء الأخطار العسكرية والكوارث الاقتصادية التى منوا بها فى مستهل القرن السادس الهجرى . ولا غرو فإن الصليبيين قد هاجموا بعض مدن الشام التى كانت خاضعة للحكم الفاطمى وانتزعوها عنوة وأقاموا فيها إمارات ودويلات ، وأخص منها بالذكر هنا بيت المقدس التى استولى عليها الصليبيون وأخرجوا منها جيش الفاطميين سنة ثلاث وخمسمائة هجرية ، ثم أخذ الصليبيون يحتلون بقاعاً أخرى فى فلسطين قرب الحدود المصرية كعسقلان وغزة وقلاعاً أخرى فى منطقة العريش وخليج تيران ، هذا من الناحية السياسية والعسكرية ، أما من الناحية الزراعية والاقتصادية ، فإن منسوب ماء النيل كان ينخفض كثيراً من حين إلى حين حتى عمت المجاعات وكثرت الأوبئة الفتاكة فى ربوع وادى النيل ، الأمر الذى جعل المصريين يشكون كثيراً فى صحة العقائد الفاطمية وبالتالى ينزعون الثقة من الخليفة الذى كانوا يعتقدون أنه معصوم وأنه يضر وينفع ، ومن ثم جعل المصريون يتجهون بعواطفهم وقلوبهم وبجميع إحساساتهم إلى الله سبحانه وتعالى يلتمسون منه كشف الضر ودرء الملمات إذ أنهم تدبروا تلك الدعاوى الفاطمية وقاسوها بواقع الأمر فوجدوا أن الخليفة بشر ، له ما لهم من صفات العجز والضعف وعدم القدرة على تغيير مشيئة الله ، فراحوا لذلك كله يبحثون لأنفسهم عن طريق آخر غير التشيع تكسبهم رحمة الله .

فكان أن قيض الله لهم محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى الذى أخذ يدعو الناس إلى الزهد فى الدنيا ، والعزوف عنها ، والاتجاه إلى الله بالقلب والقالب فى تضرع وخشية بغية السلامة فى الدنيا والآخرة . وقد نجحت دعوته واستجاب له المصريون فأخذ الطلاب والمريدون يفدون عليه من كل فج ويؤمونه من كل حدب وصوب ، ومن ثم أصبح لابن الكيزانى تلامذة ومريدون أيضاً وأنصار ومشايعون يرون رأيه ويعتقدون مقالته ، وقد أخذوا عنه علوم الظاهر كالفقه وأصول الفقه والحديث كما أخذوا عنه أصول الطريق ، أعنى أن ابن الكيزانى كان شيخ المصريين فى زمانه فى الميدانين الشرعى والصوفى ، ثم هو من ناحية أخرى كان زعيماً سياسيًّا تبعاً لزعامته الدينية . وآية ذلك أنه قاوم العقيدة الفاطمية وحارب تعاليم الباطنية وذلك بتعليمه طوائف المصريين مذهب أهل السنة وبخاصة فقه الشافعى ، وروايته لهم أحاديث الرسول بأسانيد أهل السنة أيضاً . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى عمل جاهداً على نشر التعاليم الصوفية وإذاعتها فى ربوع مصر متحدياً فى ذلك كله سلطان الفاطميين .

ولو أننا تبينا فى وضوح وثاقة الصلة وشدة الارتباط بين الحكم والدين فى ذلك الحين لعرفنا مدى الخطورة التى كان يواجهها ابن الكيزانى فى نشره تعاليم وآراء دينية تخالف تعاليم ونظريات مذهب الحاكمين ، ولا غرو فإن الحكم فى تلك العصور كان منوطاً دائماً برجال الدين . إذ كان الحاكم أو الخليفة أو السلطان يستمد قوته وسطوته ومهابته من العقيدة والدين . وقد كان هذا هو الطابع المميز لتلك الدول التى كان يتسمى رؤساؤها بالخلفاء .

ومهما يكن من أمر ، فإن ابن الكيزانى قد أسهم إلى حد كبير فى تطوير العقلية المصرية من الصبغة الباطنية إلى الفكر السنى .

وهو بذلك — فيما أعتقد — قد مهد السبيل أمام السلطان صلاح الدين الذى أسقط الخلافة الفاطمية فى مصر وأحل محلها تبعية العباسيين ، ولولا ابن الكيزانى وتعاليمه وتلاميذه ومريدوه ، ما استطاع صلاح الدين أن يقضى على الخلافة الفاطمية بتلك السرعة ، وفى ذلك الوقت الوجيز الذى تم له فيه إنهاء الحكم الفاطمى وإرجاع مصر كلها إلى المذهب السنى وإدخالها فى منطقة نفوذ العباسيين من جديد . ولعل

فيما ذكره العماد الأصفهانى من أن صلاح الدين أعطاه نسخة من ديوان ابن الكيزانى[1] ما يؤيدنا فيما نذهب إليه من القول بأن ابن الكيزانى قد مهد لصلاح الدين الطريق للقضاء على الدولة الفاطمية ، ثم إن هذا النص الذى نسبناه إلى العماد الأصفهانى يحملنا على أن نذهب أبعد من ذلك ، فنقول — على سبيل الظن والترجيح — إن ابن الكيزانى كان متواطئاً مع السلطان نور الدين زنكى على إضعاف المذهب الفاطمى والعمل على تنفير المصريين منه تمهيداً لاستخلاص مصر من الحكم الفاطمى وإعادتها إلى الخلافة العباسية ، وإن صلاح الدين الأيوبى كان حلقة الاتصال بين الرجلين ، فلما واتت لصلاح الدين الفرصة ، إذ كان الخليفة العاضد (وهو آخر الخلفاء الفاطميين) قد عينه خلفاً للوزير شاور سلطاناً على مصر ، فانتهز صلاح الدين ذلك فرصة للقضاء على الخلافة الفاطمية . ومهما يكن من أمر العلاقة بين ابن الكيزانى وصلاح الدين فإن الذى لا شك فيه هو أن أشعار ابن الكيزانى وقصائده ومواعظه وإرشاداته ومجالسه الصوفية وحلقاته الفقهية كانت كلها تمهد السبيل أمام العباسيين للعودة إلى أرض وادى النيل . ولا عجب فإن أشعار ابن الكيزانى وقصائده التى بين أيدينا تزخر بالمعانى والأفكار التى تساوق العقيدة السنية وبالتالى تخالف فى وضوح تام عقيدة الفاطميين . ومصداق هذا قوله :

داوم على ما أنت فيه فإنما الدنيا عبر
عوّدت نفسى الصبر والأجر الجزيل لمن صبر

والكيزانى فى هذه المقطوعة راض بالقدر والقضاء ، صابر على المحنة والبلاء وذلك ابتغاء مرضاة الله ، والظفر منه بجزيل الثواب ، وتلك لعمرى أحوال نفس مؤمنة قد صح اعتقادها وسلم إيمانها من الزيغ والضلال ، فهو — أعنى ابن الكيزانى — متمثل فى إيمانه قول النبى عليه السلام فى جوابه عن سؤال جبريل إياه عن الإيمان ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى » . وهذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة ، وعليه فمحمد بن إبراهيم بن ثابت ، فى رأينا عالم من

---

(١) انظر العماد الأصفهانى — خريدة القصر وجريدة العصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ م جـ ٢ ص ١٨ .

علماء السنة ، انتهى به الأمر إلى التصوف ، فهو إذن من أولئك الصوفية الذين جاء تصوفهم موافقاً لما كانوا عليه من مذهب أو اعتقاد قبل التصوف على ما فصلناه في غير هذا المكان ، والقصد مما قدمناه — فى الكشف عن وجوه الشبه وعظم المماثلة بين مذهب ابن الكيزانى ومذهب أهل السنة — أن نبين مدى أثر ابن الكيزانى فى تطوير العقلية المصرية ونقلها من العقيدة الباطنية إلى الفكر السنى إذ أن من المسلم به لدى جميع الذين هم أرخوا لابن الكيزانى أنه كان يعلم جميع الطلاب ويربى المريدين ، والشيخ أو الأستاذ يؤثر بطبيعة الحال تأثيراً جوهرياً فى نفوس الطلاب والمريدين وبخاصة فيما يتعلق بالمسائل المذهبية والأمور الاعتقادية ، أعنى أن ابن الكيزانى كان ينشر بين طلابه ومريديه تعاليم أهل السنة ويلقنهم معتقداتهم . وهؤلاء الطلاب وأولئك المريدون كانوا بدورهم يبـــذلون قصارى جهدهم فى نشر تعاليم أهل السنة فى ربوع مصر ومختلف بلاد وادى النيل . ومن يقرأ شعر ابن الكيزانى يوافقنى على القول بأنه كان من أكبر وسائل نشر مذهب أهل السنة والدعاية له فى مختلف أوساط الأمة المصرية ، وذلك لأن شعر ابن الكيزانى يتصف بالسهولة واليسر فى الألفاظ والعذوبة والرقة فى المعانى والمضامين ، الأمر الذى كان يجعل حفظه فى متناول الجميع . والناس إذا ما حفظوا شعراً واستساغوه أنشدوه ورددوه فى مختلف المناسبات ، وفى ذلك ما فيه من نشر الأفكار وإذاعة التعاليم . هذا على أن أثر ابن الكيزانى فى تطوير العقلية المصرية من المذهب الإسماعيلى إلى مذهب أهل السنة والجماعة لم يكن مقصوراً على نظمه الشعر وتعليم الطلاب وتربية المريدين ، بل جاوز ذلك كله إلى جلب المتصوفة واستقدام شيوخ أهل السنة من المشرق والمغرب ومختلف ديار العروبة والإسلام . فمن جسروا على دخول مصر الفاطمية بفضل ابن الكيزانى وشهرة أمره وذيوع صيته عبد الرحيم القناوى وأبو الحجاج الأقصرى وهما من أقطاب التصوف السنى وأعلام فقهاء المالكية وكلاهما قدم مصر فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى واستقر فى أعالى الصعيد . فعبد الرحيم أقام فى قنا ، ويوسف أبو الحجاج أقام فى الأقصر . وقد كان لكلا الرجلين زوايا وربط ومجالس وحلقات كان الغرض منها تعليم الطلاب الفقه والحديث على طريقة أهل السنة من ناحية وتربية المريدين وتوجيه السالكين وفق قواعد وقوانين التصوف

السنى من ناحية أخرى . ولولا يوسف أبو الحجاج والشيخ عبد الرحيم لما سهل على السلطان صلاح الدين مقاومة المذهب الإسماعيلى فى أرض الصعيد ؛ إذ كان المذهب الإسماعيلى قد تمركز فى إسنا وإدفو وغيرهما من مدن الصعيد وقراها . وقد كان من آثار ذينك الشيخين ظهور عدد من الخوانق والربط وكثير من المساجد الجامعة التى أنشئت فى قنا ودشنا ومنفلوط وأسوان وقوص ، وطائفة من المدارس ذات الأثر الكبير فى نشر الفقه السنى وإذاعة التصوف فى ربوع الصعيد . وقد كان أن ظهر بفضل ذلك كله أعلام وأفذاذ فى الميدانين الصوفى والفقهى نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ جلال الدين الدشناوى وخلفه العلامة تاج الدين وأبو المجد على بن وهب وابنه أبو الفتح تقى الدين المعروف بابن دقيق العيد . وهؤلاء وأمثالهم بحق قادة الفكر السنى وأعلام الفقه والتصوف المصطبغ بالصبغة السنية والذى كان أكبر وسيلة لمقاومة المذهب الإسماعيلى ومن أقوى دعائم الحكم السنى وتوطيد أركانه فى أرض وادى النيل .

وفى تقديرى أن الفضل فى ذلك كله يرجع — فى الحقيقة وواقع الأمر — إلى أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت المعروف بابن الكيزانى .

الفصل الحادى عشر

أثره فى الشعر

كان الشعراء المصريون قد أخذوا منذ أوائل القرن الخامس الهجرى يتحدثون فى قصائدهم عن العقيدة الإسماعيلية ويبينون للناس تعاليم الفاطميين . ومن ثم قصر أكثرهم قريضهم وحبسوا قرائحهم على خدمة السياسة الفاطمية ونشر الدعوة الإسماعيلية ، فأنتجوا لنا مجموعة ضافية من القصائد والأشعار بعضها فى مديح الخلفاء الفاطميين وذكر مآثرهم والإشادة بكرمهم وحسن سيرهم . . وبعضها الآخر فى شرح مبادئ العقيدة الباطنية ونشر التعاليم الفاطمية بطريقة تشبه إلى حد كبير طريقة العلماء اللغويين والبلاغيين المتأخرين الذين هم نظموا قواعد علومهم تيسيراً للحفظ وتقريباً للفهم وذلك كألفية ابن مالك فى النحو ، والسلم فى علم المنطق ، والجوهر المكنون فى علوم البلاغة . وقد كان المؤيد لدين الله الشيرازى من أكثر شعراء مصر الفاطمية تمثلا لتلك الطريقة العلمية فى إنشاء القصائد ونظم الأشعار إذ كان المؤيد الشيرازى يتبوأ أهم المناصب الروحية فى الدولة الفاطمية وأعنى بذلك مرتبة داعى الدعاة وهى وظيفة مذهبية تملى على صاحبها الجد فى نشر تعاليم ومبادئ العقيدة التى كان يعتنقها الفاطميون ؛ لذلك وجدنا صاحبنا يتوخى فى قرض شعره ونظم قصيده الموضوعات ذات الصبغة المذهبية والاتجاهات العقيدية بغية نشرها بين الناس عساها تشق طريقها إلى الشعور والإحساس ، وذلك دون شك أجدى فى نشر المبادئ من التزام طريقة المناقشة والجدال . ولا عجب فإن النظم بما يشتمل عليه من الجرس والموسيقى تستسيغه الآذان وينفعل به الشعور والوجدان ، أما النقاش والجدل فإنه إن استطاع الإقناع وأدى إلى التسليم والإذعان بفضل صحة المقدمات واستقامة الحجج ، فإن أثره فى نشر المبادئ والتعاليم العقيدية ضعيف قليل . وقد كان هذا الطابع التعليمى قد ساد الشعر المصرى فى أوائل القرن الخامس الهجرى . إذ كانت الدعوة الفاطمية آنذاك نشيطة قوية ودولتها وطيدة الأركان ، ذات هيمنة وغلبة وسلطان . أما فى

أخريات القرن الخامس وأوائل السادس فقد أخذت الدعوة فى الضعف والانحسار وذلك نتيجة للتفكك والانقسام الذى أخذ يتطرق إلى أمراء البيت الفاطمى وأتباعهم المخلصين ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ضعف الدولة فى الداخل والخارج من الناحيتين السياسية والعسكرية ، ومن ثم وجد عدد من الشعراء الفرصة السانحة لهم فى أن يقلعوا عن إنشاء القريض فى المسائل المذهبية والأمور العقيدية وأن يتجهوا بعواطفهم وقرائحهم نحو المرأة والطبيعة فراحوا يتحدثون فى شعرهم عن جسم المرأة وصورها البشرية . كما وصفوا كذلك المظاهر الطبيعية وما كانوا يشاهدونه على ضفاف النيل من رياض أريضة ومروج أريجة وتحدثوا عن جمال الورود والأزهار وعن تغريد الطيور على الأشجار . وقد كان منهم عدد غير قليل قد اتجه ببعض شعره نحو الفكاهة والمرح وأنشأ القصائد الطوال والمقطعات القصار فى التظرف والإضحاك ، نذكر من هؤلاء وأولئك على سبيل المثال ابن أبى الرقعمق والأمير تميم ؛ وبالجملة فقد أخذ الشعراء المصريون فى أوائل القرن السادس الهجرى ينظمون القصائد ويقرءون الأشعار فى الغزل والتشبيب وفى التفكه والتظرف وفى وصف الحدائق والأزهار والطيور والأشجار وفى وصف الماء والسماء والشمس وقت الضحى وعند الأصيل . كان هذا كله من الشعراء المصريين مع استمرار الطابع الأول ، فى شعر المستمسكين بالنحلة والعقيدة والذين هم ارتدوا لباس الدين . والقصد من هذا أن أقول إن الشعر المصرى فى أخريات القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين أصبح ذا طابعين : الأول نسميه شعر العقيدة الفاطمية ، والثانى نطلق عليه اسم شعر الطبيعة والغزل . وكان الأول فى تقديرنا أبعد عن الفن والأدب وأدخل فى باب العلم والجدل . أما الثانى فإنه كان ألصق بالعواطف والوجدان وأقرب إلى طبيعة الفن وكنه الأدب .

وفى هذا الجو الأدبى والمهيع الشعرى ظهر على المسرح المصرى شاعر من نوع جديد هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت المشهور بابن الكيزانى ، فقد جاء الناس بقصائد وأشعار تختلف فى العبارة والصياغة وفى المعنى والمضمون عن كل ما ألفه المصريون وتعودوا قوله أو سماعه فى ظل الدولة الفاطمية من قصائد وأشعار سواء منها ما كان مصطبغاً بالصبغة المذهبية — كأشعار المؤيد الشيرازى — أو الأدبية كأشعار أبى الرقعمق والأمير تميم — حيث اتجه ابن الكيزانى فى نظم القصيد وإنشاء

القريض وجهة جديدة وتناول معانى وأغراضًا وتحدث عن حقائق وأمور تكاد أن تكون غريبة على المجتمع المصرى فى ذلك الحين ، وأعنى بذلك ما ضمنه ابن الكيزانى شعره من الحديث عن النار والجحيم والجنة والنعيم وعما يصير إليه العصاة الفاسقون يوم القيامة من المذلة والهوان ، وما ينتظر المؤمنين الصالحين يوم الحشر والنشر من الثواب الجزيل والأجر العظيم ، ثم هاتيك القصائد وتلك الأشعار التى زخرت بلوعات الحب ومختلف صور الغرام ، ولكنه حب وغرام من نوع جديد ، إذ أن المحبوب هنا فى شعر الكيزانى ليس امرأة ولا شيئاً ماديًّا وإنما هو الله سبحانه وتعالى . وإليك مما قاله ابن الكيزانى فى المعنى الأول — على سبيل المثال :

داوم على ما أنت فيه فإنما الدنيا عبر
عوّدت نفسى الصبر والأجر الجزيل لمن صبر

ومما قاله فى المعنى الثانى — على سبيل المثال أيضاً :

اصرفوا عنى طبيبى ودعونى وحبيبى
عللوا قلبى بذكراه فقد زاد لهيبى

فهو فى المثال الأول — كما ترى — يحض العباد والذاكرين من الطلبة والمريدين على مداومة الذكر والمحافظة على الحياة والقيام بالواجبات الدينية ثم هو من ناحية أخرى يدعو إلى الصبر والاحتمال وينهى عن التبرم والضجر مما يقع للناس فى هذه الدنيا من نازلات وملمات وما يمنون به فى حياتهم من المصايب والكوارث والنائبات وذلك كله بقصد الوعظ والإرشاد وتقوية الوازع الدينى ومحاربة النزوات والشهوات ومخالفة النفس والشيطان .

وفى المثال الثانى يتحدث ابن الكيزانى عن تجاربه الروحية وما مر به فى سلوكه إلى ربه من ضروب المكابدة والمجاهدة وما عرا قلبه فى حبه مولاه من وجد الهيام وحر الغرام . والقصد من هذا أن أقول إن شعر ابن الكيزانى ينقسم فى جملته إلى فنين رئيسين : الأول نسميه شعر الوعظ والإرشاد ، والثانى أطلق عليه اسم الغزل الإلهى .

ومن يقرأ شعر ابن الكيزانى ويتدبر قصائده يجد أكثرها منحصراً فى هذين الفنين . هذا على أننى وجدت له شعراً قليلا قاله فى الزهد والحكمة ، ومن يدرى لعل

له فى هذا الفن شعراً كثيراً لكنه ضاع ولم يصلنا منه إلا النزر اليسير . وأيًّا ما كان فإننا نستطيع أن نقول فى شىء من التسامح إن شعر ابن الكيزانى ينقسم إلى ثلاثة فنون : اثنان منها رئيسان لكثرة ماوصلنا عنه منهما من أشعار — والثالث منها فرعى وهو الزهد والحكمة .

وقد كان للشعر فى أساليبه الحديثة وموضوعاته الجديدة أثر كبير فى تطوير الشعر المصرى من طابعه الفاطمى إلى الطابع السنى إذ أصبح الشعراء المصريون فى أخريات القرن السادس الهجرى يصورون عواطفهم ويشرحون مواجيدهم وما كانت تنفعل به نفوسهم فى حبها نبى الإسلام ورسول السلام محمداً العربى عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى السلام، من جهة، ونحو الأماكن المقدسة وبلاد نجد والحجاز وفى الحديث عن المظعن والترحال وفى بكاء الأطلال والتشوق إلى الديار من جهة أخرى.

وخير مثال لهذا الفن الأخير ما رواه العلامة الإدفوى فى كتابه الطالع السعيد عن المهذب الأسوانى أنه قال[1] :

وقد وقفت على الأطلال أحسبها ... جسمى الذى بَعْدَ بُعْد الظاعنين بَلِى
أبكى على الرسم فى رسم الديار فهل ... عجبت من طلل يبكى على طللِ
وكل بيضاءَ لو مسّت أناملُهَا ... قميصَ يُوسف يوماً قُدَّ من قُبلِ
يُغنى عن الدرِّ والياقوت مَبْسَمُها ... لحسنها فلها حلًى من العطلِ
بالخد منى آثار الدموع كما ... لها على الخد آثار من القُبَلِ

فالشعر فى هذه الأبيات كما ترى قد حذا — برغم مكانته التى كان يتبوأها فى الدولة الفاطمية — حذو شعراء أهل السنة فى غير مصر من أهل الأقطار العربية والإسلامية الأخرى وذلك من حيث بكاء الأطلال والوقوف عند رسوم الديار وذكر الظاعنين من الأحبة والتشوق إليهم .

هذا على أن أثر ابن الكيزانى يظهر أكثر ما يظهر فى مهيع الشعر الصوفى . فقد ذكر ابن خلكان وغيره ممن أرخوه أو كتبوا عنه ؛ أنه كان له ديوان متداول بين الناس ، وقد حاولت العثور على ذلك الديوان فلم أعثر عليه ، ولكنى وجدت له

(١) انظر كمال الدين الإدفوى — الطالع السعيد — طبع القاهرة سنة ١٩١٤ م سنة ١٣٣٢ هـ ص ١٠٠ .

شعراً غير قليل ، رواه له العماد وغيره وهو فى جملته وتفصيله . وقد أثبته فى القسم الثانى من هذا الكتاب مرتباً على حروف المعجم . لا يخرج عما وجدناه من قبل عند ذى النون والشافعى وأبى على الروزبارى وإليك من شعره على سبيل التمثيل والاستشهاد قوله(١) :

اصرفــوا عنى طبيــبى ودعــونى وحبيــبى
عللــوا قــلبى بذكراه فقــد زاد لهيــبى
طــاب هتــكى فى هواه بــين واش ورقيب
لا أبــالى بفــوات النفس مــا دام نصيــبى
ليس من لام وإن أطنب فيــه بمصيــب
جســدى راض بسقمى وجــفونى بنحيبى

وقوله(٢) :

بربــكما عرجــا ســاعة نلوح على الطلل الدارس
ففيض الدموع على رسمه يترجم عن صرف اليائس
وعهدى بغــزلانه رتعــا لدى ملعب بالدمى آنس
ولى فيهم شــادن أهيف يفوق على الغصن المائس

وقوله(٣) :

جهد عين أن لا تذوق هجوعا وجفــونى أن لا تكف دموعا
ولسانى أن لا يزال مقــرّا أننى لست للعهود مضيعا
وفؤادى أن لا يلم بــه الصبر وسقمى أن لا يورم نزوعا
ولقد أودع الغرام بقلبى زفرات أضحى بها مصدوعا
وإذا أطنب العذول فقــد عاهدت سمعى أن لا يكون سميعا
وحرام على التلهف ألا يبرح أو يحرق الحشا والضلوعا
وبعيد أن يجمع الله شملى بالمسرات أو نعود جميعــا

فابن الكيزانى فى هذه الأشعار كما ترى ، عاشق لله ، هائم فى حب مولاه من

---

(١) الخريدة جـ ٢ ص ٢٥ .
(٢ و٣) الخريدة : جـ ٢ ص ٢٧ .

جهة ، ثم هو واعظ زاهد من جهة أخرى . فهذان الغرضان ، أعنى الوعظ والإرشاد والحب الإلهى كانا هدف الشعر الصوفى ومداره فى مصر منذ أوائل القرن الثالث حتى أخريات القرن السادس ، فالشافعى وذو النون فى القرن الثالث الهجرى ، وأبو على الروزبارى ومنصور بن إسماعيل فى القرن الرابع ، فكل من هؤلاء وغيرهم قد أنشأ القريض فى الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد من جهة ، وفى المحبة الإلهية والعشق الإلهى من جهة أخرى . وإن كان قد غلب على البعض التصوف ، وعلى الآخرين الاشتغال بالفقه ، فمثل الفريق الأول فى القرن الثالث ذو النون وفى القرن الرابع الروزبارى ، ومثل الفريق الثانى فى القرن الثالث الشافعى وفى الرابع منصور ابن إسماعيل ، على ما سبق أن بيناه والقصد من هذا أن أقول : إن شعر الصوفية النظريين وزهاد الفقهاء كان فى جملته مختلطاً بعضه ببعض من حيث المعانى والأغراض متشابهاً إلى حد كبير فى الأساليب ، وطرق التعبير ، وإن كان قد غلب على شعر الذين غلب عليهم التصوف طابع الحب والغزل الإلهى ، وعلى شعر الذين غلب عليهم الاشتغال بالفقه وعلوم الشريعة ، طابع الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد . وفى شعر ابن الكيزانى هذا — المتوفى فى العقد الثانى من النصف الثانى من القرن السادس — يتجلى المزج بين طابع الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد من ناحية ، وطابع الغزل والحب الإلهى من ناحية أخرى ، الأمر الذى يتيح لنا القول ، بأن تمييز شعر زهاد الفقهاء أو المتصوفة العمليين عن شعر طائفة الصوفية النظريين لم يظهر بشكل بين وعلى صورة واضحة إلا فى القرن السابع الهجرى على ما فصلناه فى غير هذا الكتاب .

وقصارى القول فى هذا المقام أن يقال إن ابن الكيزانى قد أعاد الشعر الصوفى السنى إلى أرض وادى النيل بعد أن خلت منه زهاء قرن من الزمان .

والكلام فى هذا المجال يقتضى عمق القول وكثرة التفصيل وقد هممنا أن نفيض هنا فى هذا المقام غير أننا رأينا إرجاءه إلى موضوعه فى الباب الثانى من القسم الثانى من الكتاب .

الفصل الثانى عشر

ابن الكيزانى فى رأى الأدباء والنقاد السابقين

بعد أن بينت فى شىء من التفصيل أثر ابن الكيزانى فى تطوير الشعر المصرى أثناء القرن السادس الهجرى ، أنتقل إلى بيان فصاحته وبلاغته ومدى تجويده للشعر والمكانة التى بلغها كشاعر فى رأى الأدباء والناقدين من رجالات القرنين السادس والسابع الهجريين والذين حذوا حذوهم وارتأوا ما ارتأوا وقالوا عنه مثل الذى قاله رجال النقد والأدب فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين فأقول:

ذكره العماد الأصفهانى فى خريدته فامتدح شعره وأطراه ووصف كلامه بالبلاغة والفصاحة واستجاد معناه ، إذ قال فى ترجمته له ما نصه :

« لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة »[1] .

ثم قال العماد بعد ذلك بقليل يصف ديوانه ما نصه :

« له ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله لما أودع فيه من المعنى الدقيق واللفظ الرشيق والوزن الموافق والوعظ اللائق والتذكير الرائع الرائق القافية ، والقافية آثار الحكم والكلمة الكاشفة أسرار الكرم » .

فابن الكيزانى فى نظر العماد الأصفهانى — كما هو واضح من كلامه الذى أسلفته — فصيح الألفاظ حسن العبارة غزير المعانى ، جيد التركيب ، رائع الوصف ، بديع التصوير ، قد خلا شعره من الركاكة والإسفاف. واتصف بالجودة والجمال ، رقيق المعانى ، عذب الكلام سلس العبارة ، حلو المقال .

أما العلامة أبو محمد يوسف المشهور بسبط بن الجوزى ، فقد وصف فى كتابه المرآة ابن الكيرانى بالفصاحة والبلاغة ، ثم ذكر ديوانه على وجه الاستحسان ، فقال[2] :

---

(١) العماد الأصفهانى – خريدة القصر – طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ م جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) انظر يوسف سبط بن الجوزى – المرآة (طبع فرنكفورت) شيكاغو سنة ١٩٠٧ جـ ٨ ص ١٥٧ .

« وديوانه بمصر مشهور وممدوح مشكور ، ولقد وقفت عليه فى مصر فرأيته مليح العبارة ، صحيح الإشارة ، فيه دقة وحلاوة ، وعليه طلاوة » .

فصاحب المرآة كما ترى يتفق فى وصفه شعر ابن الكيزانى مع العماد الأصفهانى .

أما ابن خلكان ، فقد قال[١] :

« وله ديوان شعر أكثره فى الزهد ، ولم أقف عليه ، وسمعت له بيتاً واحداً أعجبنى ، وهو (من الخفيف) .

وإذا لاق بالمحب غـرام فـكذا الوصل بالحبيب يليق

وفى شعره أشياء حسنة » .

فكلام ابن خلكان فى رأينا يتفق مع ما قاله سبط بن الجوزى والعماد الأصفهانى ، إذ أنه (أعنى — ابن خلكان) — قد استجاد البيت الذى سمعه من شعر ابن الكيزانى وذكر أن فى شعره أشياء حسنة بالرغم من أنه لم يقف على الديوان .

أما ابن سعيد المغربى ، فإنه قد خالف ابن خلكان وسبط بن الجوزى والعماد الأصفهانى فى الحكم على شاعرية ابن الكيزانى ووصف ديوانه إذ استغثه ووصفه بالركاكة والإسفاف وبأن شهرته ليست دليلا على جودته إذ كثيراً ما يحسن السماع بالشيء فى حين تستقبح رؤيته ومصداق ذلك المثل العربى المشهور « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » .

وإليك ما قاله موسى بن سعيد المغربى عن شاعرية ابن الكيزانى وديوانه[٢] :

« ووقفت على ديوانه وهو مشهور عند الناس قريب من أفهام العامة غير مرض عند صدور الشعراء وأصحاب غرض الكلام وفرسان النظام . ولم أكتسب من ديوانه ، وقد ضجرت من اختياره ومطالعته ، شيئاً تهش النفس إليه ، وإنما أوردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيراً ما يباع فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة . وكان من لا يعرف معانى الشعر المستحسنة وألفاظه المستبدعة يحضنى على الوقوف

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان — طبع القاهرة سنة ١٩٤٨ — جـ ٤ ص ٨٦ .

(٢) انظر ابن سعيد المغربى — المغرب فى حلى المغرب — طبع القاهرة سنة ١٩٥٣ جـ ١ (القسم الخاص بمصر) .

عليه ، فلما وقفت عليه أنشدنى متمثلا (أنا المعيدى فاسمع بى ولا ترنى) وسكن العراق وفيه يقول :

لم تكن بالعراق دارى ولكن لهواكم سكنت أرض العراق

وذاكرت فيه أحد الأدباء بمصر وأعلمته أنى وقفت على ديوانه ، فلم أر فيه ما يصلح للاختيار ، فأنشدنى له أبياتاً ، لم أقف عليها ولا على ما يقاربها فى ديوانه المذكور إلا أن تكون نسخة أخرى :

إذ نفحت رياح الغور يومـاً فإن الدمع ينجدنى ويغرى
تذكرنى الذى قد غاب عنى فيلقانى وألقـاه بذكر
نأى عنى قلبى مثـل برق وأجفـانى سحاب ذات قطر
ويالهـفى عليه ثم لهفى نأى بنواه يوم البين صبرى
أبيت معللا روحى بروح الـ نسيم من أرضه أبان يسرى
ولا والله ما ذاقت جفونى مناماً ولا أخليت ذكرى
ووا أسفى على أن ذبت شوقاً وأحسبه بذلك ليس يدرى

فكلام ابن سعيد هذا كما ترى ظاهر الذم كثير التحامل ينم فيما أظن عن قلب مضغن ونفس مستاءة ، إذ أن العبارات التى أوردها ليست من قبيل النقد الأدبى فى شىء لأن النقد كما هو معروف وصف وتقييم للنص الأدبى — وذلك إذا ما كان من قبيل المنهج التصاعدى — بما فيه من حسن وقبح أو جودة ورداءة ، والناقد إذا حكم حكماً سواء أكان بالذم أم الإطراء فإنه يبرر حكمه ويسوق الدليل عليه ، وذلك بأن يقول مثلا هذا البيت أو هذا الشعر ردىء لأنه اشتمل على كذا وكذا وورد فيه كذا وكذا ! .

أما ابن سعيد المغربى فإنه فى نقده ديوان ابن الكيزانى ووصفه شعره بما قد رأيت غير جار على سنن النقد السليم لأنه لم يذكر كلمة رديئة أو بيتاً غثًّا أو معنى ركيكاً على سبيل التشخيص والتعيين وإنما قال ما قال على سبيل الإجمال والتعميم مع عدم الاستناد إلى أى حجة أو ذكر أى دليل يؤيده فى كثير أو قليل .

وأيًّا ما كان ، فإن ابن سعيد هو وحده الذى ذم شعر ابن الكيزانى .

هذا هو موقف أدباء ونقاد القرنين السادس والسابع الهجريين من شاعرية ابن الكيزانى وديوانه وذلك على سبيل الإجمال غير المخل والإيجاز غير المضر بالغاية والمقصود .

أما أدباء ونقاد القرنين الثامن والتاسع الهجريين فإنهم لم يأتوا — فيما كتبوه عن ديوان ابن الكيزانى وشاعريته — بشىء جديد ، بل إن كل ما قالوه لا يخرج فى الحقيقة وواقع الأمر عن كونه محاكاة أو تكراراً لما كتبه عنه السابقون .

فهذا العلامة الصفدى وهو شاعر مفاق وجهبذ حاذق ذواقة للشعر يجيد نقده ويحسن تقسيمه ، لم يزد حين عرض للكلام عن ديوانه على أن ردد ما قاله ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان والعلامة محيي الدين يوسف سبط بن الجوزى فى كتابه مرآة الزمان وكل ما زاده الصفدى على طولهما هو إرجاعه بعض معانى شعره إلى ما طرقه من قبل الشعراء السابقون ، إذ يقول بعد أن روى هذين البيتين[1] :

يا من يتيه على الزمان بحسنه ... إعطف على الصب المشوق التائه

حتى يخاف على احتراق فؤاده ... أسفاً لأنك منه فى سوادئه

ما نصه[2] :

قلت وهذا معنى مشهور أشبه شىء بقول الأرجانى :

يرمى فؤادى وهو فى سوداته ... أثره لا يخشى على حوبائه

وقصد الصفدى من هذا أن يقول إن المعنى الذى عبر عنه ابن الكيزانى فى البيتين المذكورين ليس مبتكراً ولا هو بالأمر الجديد بل إنه قديم مطروق وهذا هو ما يعبر عنه فى علم البديع بالسرقة الأدبية ولست أدرى أكان الصفدى يريد من ذلك المدح أم الهجاء لأنه لم يسفر عن مراده إذ أرسل الكلام خالياً من كل تصريح أو تلميح بالاستحسان أو الاستهجان إذ من المعروف أن السرقة الأدبية تكون صفة مدح للسارق تارة وتكون ذماً له تارة أخرى على ماهو مقرر فى أصول نقد الأدب العربى القديم .

---

(١) انظر خليل بن أيبك الصفدى — الوفى بالوفيات — طبع إستانبول سنة ١٩٣١ جـ١ ص ٣٤٧.

(٢) انظر خليل بن أيبك الصفدى — الوفى بالوفيات — طبع إستانبول سنة ١٩٣١ جـ ١ .

أما شمس الدين محمد بن الزيات صاحب الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة والمتوفى فى أوائل القرن التاسع الهجرى فإنه لم يزد حين عرض لشعر ابن الكيزانى على أن قال : « وقد استحسن أبو الفرج بن الجوزى شعره »[١] .

أما العلامة السخاوى فإنه اقتصر فى وصف شعر ابن الكيزانى على قوله : « وله شعر رائق »[٢] .

هذا ومما أوردناه من آراء وأقوال مؤرخى وأدباء القرنين الثامن والتاسع الهجريين يظهر لنا فى وضوح أن المتأخرين يتفقون مع السابقين فى نعت ابن الكيزانى بالفصاحة والبلاغة ووصف شعره بالحسن والجودة .

وبناء على ما قدمناه من أقوال المؤرخين وآراء الأدباء الناقدين فى شعر ابن الكيزانى وأدبه نستطيع أن نقول إنه كان خطيباً مصقعاً وشاعراً مفلقاً . غير أننا لا نجد مجالا لتبين طاقته الخطابية وتفهم مكانته فى دنيا الخطابة ولا أن نحدد مرتبته على وجه التعيين بين الخطباء ، وذلك لأنه لم يصل إلينا شىء من خطبه حتى نستخلص منها خصائصه الخطابية .

وكل ما لدينا من دليل على نعته بالخطابة وسلكه فى عداد الخطباء هو قول الذين هم ترجموا له أو أرخوا أنه كان واعظاً مذكراً والوعظ والتذكير إنما يأتيان بالكلام المنثور الذى يخرج صاحبه عادة مخرج الخطابة . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنهم قالوا إن له كتابين اسم الأول الرقائق واسم الثانى مليك الخطب .

أما عن شاعريته وقدرته على نظم القريض فإن لدينا من شعره ونظمه ما يكفى للحكم له أوضده على ما سوف نعرض له بالبسط والتحليل فى موضعه من القسم الثانى من هذا الكتاب . هذا على أننا نستطيع أن نقول هنا على وجه الإجمال والاقتصار إنه كان شاعراً مجيداً قد اتصف بحسن اختيار الألفاظ والقدرة على توخى العمق فى المعنى مع ظهور القصد ووضوح الغرض فى تراكيب تتصف بسهولة اللفظ ويسر العبارة واستقامة الأسلوب .

---

(١) انظر محمد بن الزيات—الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة طبع القاهرة سنة ١٩٠٧ ص ٣٠٣ .

(٢) انظر نور الدين بن أحمد السخاوى — تحفة الأحباب وبغية الطلاب — طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ الطبعة الأولى ص ٣٨٥ .

الفصل الثالث عشر

وفاته والمكان الذى دفن فيه

بعد أن تكلمت عن نشأة ابن الكيزانى وألقيت الضوء على حياته العلمية وتفهمت مذهبه الفقهى ونشاطه الصوفى وكشفت عن اتجاهه العقيدى وبسطت موقفه من الشريعة وعلوم أهل الظاهر ، وبذلت كل ما فى وسعى أن أرسم للقارئين صورة واضحة المعانى بينة القسمات عن شعره وأدبه ، ثم عرضت بالشرح والتبيان لموقف المؤرخين والأدباء الناقدين منه وفصلت آراءهم فيه، بعد ذلك كله أنتقل إلى ذكر وفاته والمكان الذى دفن فيه وذلك باستعراض الروايات المختلفة المتعددة كما هى فى مصادرها . فأقول :

ذكر العماد الأصفهانى وفاة ابن الكيزانى والمكان الذى دفن فيه فقال :

« توفى سنة ستين وخمسمائة ودفن عند قبر إمامنا الشافعى رضى الله عنه »[1] .

أما ابن تغرى بردى فقد قال عن وفاته والمكان الذى دفن فيه ما نصه[2] :

« توفى الشيخ المقتصد محمد بن إبراهيم الكيزانى أبو عبد الله الواعظ المصرى ودفن عند قبر الإمام الشافعى بالقرافة الصغرى واستمر هناك إلى أن نبشه الشيخ نجم الدين الجيوشانى فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأخرجه ودفنه بمكان آخر فى القرافة » .

أما ابن خلكان فقد قال[3] :

توفى ليلة الثلاثاء التاسع من شهر ربيع الأول وقيل بل توفى فى المحرم سنة

---

(١) العماد الأصفهانى – خريدة القصر وجريدة العصر – طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ م جـ ٢ ص ١٨ .

(٢) ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة وملوك مصر والقاهرة – جـ ٥ ص ٣٧٦ طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ .

(٣) ابن خلكان – وفيات الأعيان – طبع القاهرة جـ ٤ ص ٨٦ .

اثنتين وستين وخمسمائة بمصر ، ودفن بالقرب من قبة الإمام الشافعي رضى الله عنه بالقرافة الصغرى ثم نقل إلى سفح المقطم بقرب الحوض المعروف باسم أم مودود ، وقبره مشهور هناك يزار ،وزرته مراراً ، رحمه الله تعالى .

أما الصفدى وابن الزيات والعلامة السخاوى فإنهم لم يذكروا عند كلامهم عن وفاته والمكان الذى دفن فيه شيئاً يختلف عما قد ذكره صاحب المرآة والعماد وابن خلكان .

هذا ومما أوردناه من أخبار وفاته ومكان دفنه نستطيع أن نقول إن المؤرخين متفقون على مكان دفنه وما حدث له بعد ذلك من نبش وتغيير لمكان الدفن وكل ما وجدناه من خلاف بين المؤرخين وأصحاب التراجم فهو منوط بعام الوفاة إذ ذهب صاحب المرآة والعماد الأصفهانى إلى أن وفاته كانت عام ستين وخمسمائة هجرية على حين ذكر ابن خلكان أنها سنة اثنتين وستين وخمسمائة .